لحظات صالحة للقتل

مجموعة قصصية



لحظات صالحة للقتل

المؤلف :
محمود الغيطاني
الطبعة الاولى:
2008
رقم الإيداع
٢٠٠٨/١٣٥١٩

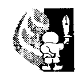
لوحة الغلاف:
الفنان أحمد الجنايني

تصميم وتنفيذ الغلاف:
كامل جرافيك

EL LIBRO HISPANO-EGIPCIO
SANABEL
الإسبانية المصرية للكتاب

الإشراف العام
د. طلعت شاهين
sanabook@maktoob.com

الموزع الرئيسى :



سنابل للكتاب
٥ شارع صبري أبوعلم
باب اللوق - القاهرة
تليفون:
(+202) 2 393 56 56
(+202) 2 393 65 93

e-mail:
sanabooks@maktoob.com

مجموعة قصصية

لحظات صالحة للقتل

محمود الغيطاني

إهـداء

إلى ذاتي القابعة في أعماق ذاتي...

اعترافا بتوحدها

إلى حبيبتي...

ميادة

اعترافا بعشقي اللامتناهي



هلاوس ذهنية

في يوم كانت قد اكفهرت فيه السماء ونعق البوم أدخل إلى بيتي متعبا فيتزلزل كياني. كانت زوجتي ترتدي ملابس الرجال بينما نبتت لحيتها مشعثة، بل ونما لها شاربان كثان. أقف مشدوها غير قادر على استيعاب الأمر، إلا أنها تضحك بصوت ذكوري غليظ لتقول بوقاحة ساخرة:

– ما بالك تقف هكذا كمن فقدت زوجها؟

أحاول الإفاقة من كابوسي إلا أنه كان يزداد سوءا. أراها تنهض لتطوقني بذارعيها كما أفعل معها تماما. تعتصرني في أحضانها لتلثم شفتي بشهوانية ذكورية عجيبة. تقول بهمس:

– ماذا بك حبيبتي؟ أراك شاردة.

يمرق سهم الدهشة في عقلي فلا أدري بما حدث بعد أن أغشي عليّ من فرط الدهشة.

***

أفيق من إغفاءتي صباحا غير متذكر ما حدث بالأمس. أنادي عليها باسمها المحبب. حينما يرد عليّ الصمت بطنينه القاسي أنهض متكاسلا لأقف تماما كالتمثال غير قادر على النطق عندما أصل إلى باب الحمّام. كانت تعطيني ظهرها وقد أمسكت بالموسي تحلق لحيتها بينما صوت صفيرها يعلو هادئا. تراني في مرآتها فترحب بي

مبتسمة:

– أهلا حبيبتي، متى استيقظت؟

تقترب لتقبلني. أبعدها منزعجا فتقول بلا مبالاة:

– أجل، فهمت؛ كريم الحلاقة يضايقك.. أنا آسف.

تنتهي من حلاقتها بينما أراها تفك أزرار سروالها وتبول واقفة كالرجال تماما. تدور الأشياء من حولي ثم يغشي عليّ.

***

في إحدى إفاقاتي المتكررة أسمع صوتها من بعيد يناجيني:

– حبيبتي، أفيقي، ما بالك هذه الأيام كثيرة الإغماءات؟

أفتح عينيّ ببطء آملا رؤيتها في صورتها الأنثوية القديمة. أكاد أبكي لمرآها الرجولي وذلك الصوت الخشن الذي بات سمة من سماتها. عندما تراني أنظر لها تبتسم براحة لتقبلني فأشعرها تعتصر شفتيّ. شعور قاس بكوننا رجل يلوط رجلا ينتابني؛ فأبتعد عنها متقززا. أحاول إبعادها باشمئزاز حينما تحاول أن تعيد الكرة فتقول مندهشة:

– ما بالك تشعرين بالقرف؟ حالتك هذه الأيام صارت عجيبة، يبدو أنك حامل.

أنظر إليها بدهشة فتطوقني بذراعيها بينما يدها تداعب صدري وكأنني قد نبت لي ثديان. أشعرها تمرر يدها على جسدي متحسسة إياه فأزيحها ببطء. إنها تخلع ملابسها، تتجرد ويا لهول ما رأيت. كان لها عضو ذكري ضخم بينما صدرها قد امتلأ بالشعر. أنظر متأملا

وقد انتابتني رغبة شديدة في البكاء. أراها ترغب في مضاجعتي فيغشي عليّ.

***

عند استردادي الوعي كنت قد سلّمت بالأمر واقتنعت بكوني امرأة وكونها رجلي. أفتح عينيّ بهدوء لأتمطى في فراشي بدعة ناعمة. أترنم بأغنية لا أذكرها فيتردد صدى صوتي الناعم الجميل. أنهض لأرتدي سوتيانا وقميصا مغريا لأسلب لب زوجي الذي كان زوجتي. أناديه بغنج مثير فلا يرد. أبحث عنه لأراه... بل لأراها، حقيقة لست أدري؛ فلقد ظللت واقفة في مكاني فترة ليست بالقصيرة وقد تملكتني الدهشة حينما رأيته في زي أنثى تنظر إليّ وكأنها تنظر إلى معتوه ثم تصرخ مستنكرة:

– نهار اسود، يبدو أنك جننت، أترتدي ملابسي يا رجل؟

أقول بصدق وقد امتلكتني الدهشة:

– حبيبي، من الذي تخاطبه؟! إني زوجتك الحامل في الشهر الثالث.

أراها تلطم خديها حتى لكأنها أصابها مس من الجنون، بل تكاد أن تشق قميصها فيلتبس عليّ الأمر. أصرخ بصوتي الناعم:

– أنا التي جننت أم أنت؟ أرأيت في حياتك رجلا يرتدي ملابس زوجته مثلما تفعل الآن؟ ماذا أقول للجيران عن زوجي؟ أنظر إلى ما ترتديه أولا..

ومنذ ذلك الحين نبت لي ثديان وتلاشى ما بين فخذيّ ولم أستطع الرجوع إلى رجولتي!!



الجلوس على الخازوق

- الحرية.. أخيرا!

أنطقها دون وعي، بانطلاقة زافرة من أعماقي و كأني أزفر معها كل ما يجوس داخلي. لم يكن بانتظاري أحد. لا بأس؛ فلم يعلـم أحـد بموعد خروجي.

أنظر خلفي. يتطاول الباب الصلد بشموخ و كأنه يلطمني علـى قفاي مستهزءا. هو الذي يعرف السر. أم ترى يعرفه الآخرون؟!

أترجل بعيدا و كأني أهرب من أشباح غير مرئية. أهـرب مـن نفسي و محاكمتها القاسية. أشعر بنظرات الناس تنهشني. في عيونهم ظلال من السخرية أو هكذا خيل لي، كأنهم يعرفون ما حدث. أحاول الهروب من نظراتهم. أنكس رأسي غير قادر على التخلص من شعور المراقبة. أوقف عربة فينظر لي السائق مستخفا و كأنه يعـرف هـو الآخر كل شيء. هل فضح أمري؟! أأعيش مخذولا بهذا الشكل؟!

***

كانت جلساتنا تطول. النقـاش فـي الأحـوال الـسياسية و الاقتصادية المتردية يزيدنا حدة و حماسا. نشاطنا التنظيمي كـان قـد فاحت رائحته. ازدادت مراقبتنا دون أن ندري بعد أن تفشى أمرنـا. وجدنا أنفسنا ذات أمسية محاطين بجمع من رجال الأمن. لم ندر إلا و كل منا في زنزانة منفردة.

***

تتوقف السيارة بقوة أفاقتني. يقول السائق بسخرية جعلتني أنكمش خجلا:

- وصلنا يا بيه.

أهبط متخاذلا. أمد يدي بالنقود فيأخذها هازئا. هل هو كذلك بالفعل أم أني أتوهم؟! تقابلني صغيرتي على مدخل المنزل. فرحة تجري نحوي لترتمي عليّ. أحتضنها بشوق. بتساؤل طفولي مرح تسأل:

- انت كنت قاعد فين يا بابا؟

يصدمني السؤال فيهبط عليّ كالكارثة. من أين علمت بالأمر؟ أتأمل وجهها إلا أني لا أستطيع معرفة ما يدور برأسها. أصمت و قد اكتسى وجهي بكآبة. أسألها:

- ماما فين؟

- بالداخل.

أهبطها أرضا لتسير جواري. تلح عليّ بسؤالها الذي يهبط عليّ كالسوط:

- انت كنت قاعد فين يا بابا؟

تلقاني زوجتي ببسمة مشرقة. أدقق النظر في عينيها. هل تسخر منّي هي الأخرى؟ تحتويني بعمق. تسألني عن أحوالي و صحتي و لماذا لم أعلمها بنبأ خروجي. أقول:

- كان الأمر مفاجئا بالنسبة لي أيضا.

تصمت متأملة إياي بحنانها المعهود. باشتياق وتلهف. برغبة أكيدة ألمحها في عينيها. كم أفتقدها. أرى نظرتها المفعمة بكل معاني الشوق و كأنها تسخر منّي.

***

فوجئت بباب الزنزانة يفتح بقوة و كأنه ينفجر في وجهي. دخل رجلان. أذكر أنهما كانا واقفين خلفي حينما تم استجوابي منذ قليل. أخذاني إلى غرفة وصلتها بعد المسير في دروب طويلة. فكا العصابة من حول عينيّ. رأيتني في غرفة غريبة أشبه بالزنزانة التي كنت فيها. أتأملها. كانت خالية إلا من أحد الرجال. كان ضخم الجثة، متجردا تماما من ملابسه. ألمح في عينيه نظرة قاسية لزجة بها الكثير من الشراهة و الرغبة. جردوني من ملابسي. قيدوني.

***

أشعر بها تتسلل بهدوء بعد نوم الصغيرة. حفيف ثوبها يوقظ أعصابي المفتتة. رائحة العطر تخترق خياشيمي. تستلقي جواري. تقبلني بشوق فتوقد النار داخلي. أحتويها بشوق. نهداها الفتيان يلتمعان في عينيّ فأعتصرهما بكفي. تتهالك مستسلمة للرغبة. تخلع قميصها عن جسد شمعي لدن. أتعرى لنبدأ العراك الفيزيقي الذي ينبثق منه كل معنى للحياة. تجذبني إليها فنلتحم. تزداد حرارتنا لتفوق حرارة براكين الأرض.

***

بعد صراع ودفاع مستميت للحفاظ على رجولتي، التي هي على وشك الضياع أستسلم منهكا. أحاول المقاومة مرة أخرى، إلا أنهما أحكما قبضتيهما عليّ بعدما أوجعاني ضربا؛ فلم أستطع الحركة. أشعر بالرجل الضخم يخترق مؤخرتي بقسوة. أشعر بدمائي هائجة غاضبة، تكاد شراييني أن تفجر. أحاول الدفاع عن ذاتي إلا أني أفشل. يزداد الرجل قسوة في العبث بمؤخرتي بينما الكثير من الكلمات الساخرة

الوقحة تنطلق من أفواههم. أشعر بأنفاسي تنسحب وكأنها تهرب منيّ. يتحول الأمر وكأني أشاهد أحد المشاهد السينمائية التي لا علاقة لي بها. تتجمع الدموع في مقلتيّ. تنهمر غزيرة لأغيب مع الزمن والخزي.

***

أراه أمامي ينظر إليّ ساخرا. أرتعد. تنزوي الرغبة داخلي بينما هي تزداد تأججا. تحتويني بعنف. تريدني أن أعبث بكل زاوية من زوايا جسدها. أشعر بألم في مؤخرتي. أنظر لعينيها الشبقتين فأرى رغبتها ممتزجة بسخرية. تقول بصمت قاس:

– أهتكا عرضك؟

تأوهاتها تمزقني. رغبتها تنهشني. تريدني أن أكمل الفعل فلا أستطيع. تصل برودتي دون مستوى الصفر بينما هيئته تتجسم أمامي. تجذبني نحوها فأراهما يرغماني على الركوع. تقول بفحيح أنثوي مفعم بالرغبة:

– ماذا بك؟ أكمل.

أراهما يخرجان عضويهما طالبين منيّ مصهما بسخرية بينما الآخر يعبث بي. أنزوي في أحد الأركان. أراها ممددة تنتظرني بينما فخذاها منفرجان على ذلك الشق الطولي فاغرا فاه و كأنه يريد ابتلاع الكون. أراه يتسع لتنسكب منه دماء غزيرة تشبه دماء مؤخرتي.

أصرخ: – ضمي ساقيك.

تنظر منزعجة. تقترب فأبعدها بخوف:

– ماذا بك؟

تنسكب دموعي بينما أنظر إليها صامتا. أشرع في ارتداء

ملابسي. يتلقفني الشارع بريح غاضبة فتصفع وجهي المنصهر. سكون عجيب يسيطر على الكون، تقطعه ريح هوجاء تقلقله بغضب ولكنها سرعان ما تعود للسكون التام. أبتاع علبة سجائر. يلقيها البائع بتأفف. أرى في نظرته كل شيء. إذن فالجميع يعلمون بخزيي.

أتجه صوب سور حديدي مدبب. أقترب. يتشكل أمام عينيّ ما حدث. أصعد السور الحديدي. أفك سروالي لألقيه أرضا. يتجمع الناس أسفل السور ناظرين بدهشة إلى مؤخرتي العارية. يبصقون عليّ ساخرين. تنطلق الضحكات الهازئة لتملأ الفضاء الرحب، وعلى مرأى من الجميع أجلس بقوة على العود الحديدي المدبب لينغرس في أحشائي!!



عوالم المسخ القميئة

غاص بي الليل في الأعماق السحيقة. الشارع المظلم خال إلا منّي، ولكن الصوت الذي يناديني يعطيني الدافع للاستمرار. كان الهاتف قريبا بعيدا بين بين. انشقت الأرض عن رجل ذي ألف وجه. استوقفته علّه يدلني:

– أتسمح سيدي أن تدلني على مكان الهاتف؟

انطلقت أصوات كثيرة لم أدر مصدرها. تفحصت الوجوه الألف فلم أر فم أحدهم يتحرك. قالت الأصوات:

– الهاتف قاتل وقادر، لما تريده؟

– أمرني بالقدوم من بلدتي إليه.

– إذن فالويل لك، أعارضته في شئ؟

– لم أفعل سيدي، إني حتى لا أعرف كونه، ألك أن تدلني على كونه؟

انطلقت ألف ضحكة دفعة واحدة فهزت الكون من حولي. مات نصف البشر من أثر المفاجأة وأغشى على النصف الآخر خوفا. ابتلت ملابسي إثر اندفاع البول. كانت الوجوه كريهة. قال:

– الهاتف لا يعرف أيها الساذج، لكني أنصحك بالحيطة منه.

يبتعد عنّي بوجوهه فأناديه:

– لكنك لم تخبرني عن مكانه.

تنطلق أصوات مبتعدة:

– في الدرك الأسفل من المدينة ستمر بك امرأة شمطاء، نصف وجهها أبهى من البدر والآخر غاية في القبح، انتظرها هناك علّها تدلك.

وكان عليّ اختراق طبقات المدينة. فطبقة حمراء، وأخرى زرقاء، وثالثة سوداء، حتى وصلت الدرك الأسفل. شوارعه تموج بالتأوهات ما بين سحاق و لواط و جنس بين الاثنين، أحدق مبهوتا في الجميع. أسأل أحدهم:

– أرأيت العجوز الشمطاء ذات الوجهين سيدي؟

يرد الرجل الذي كان مشغولا بامرأة فاتنة بين فخذيه:

– ألا ترى أني أمارس تعبداتي؟ ابتعد عن وجهي حتى أفرغ.

كان يضاجعها بقسوة على مرأى من الجميع بينما هي مشغولة في شرب الخمر من شيء يشبه في جملته عضوا بشريا وبين الفينة والأخرى تصرخ صرخة مدوية من إثر قسوة الرجل. قالت تدلني:

– في منتصف الدرك الأسفل انتظرها، إنها على وشك القدوم.

و حينما مرّ ألف ليل أتت العجوز تنادي:

– يا معشر سكان الدرك الأسفل زيدوا من فعلكم، كونوا أكثر قسوة؛ فالرب يبارككم.

تبينتها من جانبها الحسن فتخيلتها فاتنة. توقفت الدماء في عروقي حين رأيت نصفها الآخر. قالت:

– ماذا تريد أيها الغريب؟

- أود الوصول إلى الهاتف، فهو يناديني.

- طريقك صعب أيها الغريب، لكني سأدلك بشرط أن ترضع من ثديي.

- ولما أفعل ذلك؟

- انه شرطي، إما قبلته أو لتذهب إلى حال سبيلك.

وأخرجت ثدييها فتساقط من أحدهما دم قان ومن الآخر صديد. ملأني الغثيان. قلت:

- سيدتي، لا أستطيع.

ابتعدت قائلة:

- اذهب إلى حال سبيلك.

- لكني أريد الوصول.

جاء صوتها متباعدا:

- في آخر هذه الدنيا، عند الحدود الفاصلة بين الحقيقية والخيال سيمر بك رجل له وجه خنزير قمئ، إذا تقيأت أمامه سيلتهم القئ ثم يدلك.

وعدت إلى اختراق عوالم متناقضة. منها المائية والنارية والهوائية والمادية حتى وصلت. كان الرجل الخنزير يجلس تحت شجرة يسيل منها سائل مقزز فيلعقه. حاولت القئ، فتقيأت ديدانا و ثعابينا وسائلا في لون أخضر وأصفر. أتقزز من نفسي. يسرع الرجل الخنزير بلعق القئ مستمتعا. يسألني:

- ما حاجتك أيها الغريب؟

– مكان الهاتف.

– انه لا يوجد عند الخط الفاصل، فلما قدمت؟

– لأنك تعرف مكانه.

– إني لا أعرفه لكني أعرف من يدلك شريطة أن تعطيني قلبك.

– سأعطيك جزءا من روح القلب، أتوافقني؟

بعد تفكير وافق قائلا:

– عند حدود الأخضر والأصفر ستجد مسجدا عتيقا، إن استطعت أن تصلي فيه وراء إمامه ستعرف أين تجده.

ووصلت بعد اختراق حجب الظلام. يرتفع صوت المؤذن سامقا. كان الناس شديدي المسخ. يتحركون إيابا وذهابا دون الاقتراب من المسجد. أدخله خاشعا. أنتظر إقامة الصلاة لكنه لم يفعل. كان المسجد شاغرا إلا منّي و منه. نظر إليّ الشيخ متعجبا. أقول:

– ألن تقيم الصلاة؟

ارتسمت علامات الدهشة على قسماته قائلا:

– ماذا تقصد بقولك أيها الغريب؟

– أقصد الصلاة.

– من أي عالم أنت؟ ذاك أمر لا نعرفه ولم نسمع عنه من قبل، وهذا المكان لا يدخله غيري، فلما دخلت؟

– كي أستطيع الوصول للهاتف.

– أخرج من هنا وابحث عنه في مكان آخر.

ثم بصق عليّ ليقول:

– قد يكون وهما أيها الغريب الملعون. أتزعجني في خلوتي؟!

أخرج حائرا. أنظر حولي فأرى رجالا ذوي نهود عارية ونساءً لها من الذيول ما لا حصر له. لفتني دوامات عجيبة. تزايد اختنـــاقي بينما انطلقت من عقلي إشارات تنبيه خطرة. أسرع بـــالهروب إلـــى الركن القصي من الكون. أفتح صدري مخرجا قلبي. أوقفه عن النبض ثم أعيده حيثما كان وأغمض عينيّ راضيا.



أسطورة الخلاص

"يأيها السائرون نياما لا تقنطوا من رحمة الصحراء"

– عند سيادة اللون الأصفر على هذا الكون ستعرف الحكمة من كونك.

ترددت أصداء العبارة في أرجاء كياني الخاوية. الطريق طويل تتخلله الخضرة و الصفرة لتكسبه جمالا وحشيا. أنظر للأفق المتموج من أثر الحرارة الحارقة. لم تصافح عيناي آخره؛ فعادت كاسفة. انشقت الأرض عن امرأة يكسوها السواد. تبينت بعد ذلك أنه شعرها الغزير الذي تتخذه رداءً لها.

أتساءل بمرارة أستشعرها تملأ فمي فتدفعني للقئ:

– أما لهذا الطريق من نهاية؟

بصوت عميق وكأنه صادر من أعماق سحيقة:

– ولما تريد نهايته؟

– علمت أن في نهايته الحقيقة التي أبحث عنها.

– حقيقة كنهك؟

بدهشة:

– ولكن كيف عرفت سيدتي أني أبحث عن ذلك؟

بحسرة:

– لا يهم كيف عرفت، ولكن ليتك لا تعرفها.

– لم سيدتي؟

– إنها قاسية وقاتلة.

– لكنها أملي الوحيد في الخلاص.

– إذن فأمامك خيار واحد

– ما هو سيدتي؟

أراها وقد فردت شعرها الملتفة به فصارت عارية. تقول بغواية قاتلة:

– أن تضاجعني كي تصل إلى بغيتك.

– عفوا سيدتي، إني لا يشغلني سوى الحقيقة.

– إذن، فعند سيادة اللون الأصفر على هذا الكون ستعرف الحكمة من كونك.

طال الطريق الخال إلا منّي. كان جحيميا لافحا ينثني كالثعبان. تنشق الرمال عن وردة حمراء فتكسب المنظر جمالا فاتنا. اقترب متنسما رحيقها فتستحيل إلى تلك المرأة. تقول:

– هيا افعل كي يزول عذابك.

أهرب رافضا. القنوط يتخلل مسامي. على بعد عدة فراسخ كانت الرمال متدرجة إلى طريق أرضي عميق. أهبطه بحذر. تقابلني العديد من الممرات المتداخلة. أقف متحيرا، مفكرا في أيها أسلك. كان يأتي من أحدها صوت ضعيف يتلاشى مع الريح. أسير فيه بمهل. تفرع إلى عدة ممرات ولكني تتبعت الصوت. هالني ما رأيت. كان هناك وحشا أسطوريا يشبه في جملته الإخطبوط. كان له رأس رجل، و كل ذراع من أذرعه هو عضو ذكري تتعلق بكل منه أنثى فاتنة. كانت

النساء تصرخ، لست أدري لماذا. قال الرجل الإخطبوط:

– مرحبا بك في مملكة التأوهات.

أقول مشدوها:

– ما سر تلك التأوهات؟

– إنهن يبحثن عن حقيقة الخلاص.

– و لم يتأوهن؟

– لأنهن في مرحلة الكشف، هيا تعلق بأحد أطرافي كي تصل إلى الكشف.

– لا ، إنك توهمهن.

حينذاك تحركت الجدران مقتربة منّي. ملمسها لزج. أتقزز بينما الأذرع الأخطبوطية تقترب منّي. أبحث عن ملجأ للهرب. أسرع نحو أحد الممرات. أدخل في دوامة كبيرة حتى وجدت طريقي للخروج. أجلس لأستعيد أنفاسي المنبهرة. بعد مسيرة عدة قرون كانت سيادة اللون الأصفر على الكون. أفتش عن الحقيقة مرهقا. أفشل ؛ فأجلس شاردا بينما القهر يعصرني. تلوح لي ناقة شاردة وسط الصحراء. ظننت أني أتوهم، لكنها اقتربت منّي وأمرتني باعتلائها ناشدة راحتي. أفعل شاكرا. لم أكد أستقر على ظهرها حتى اقشعر جسدي. تنتبه رجولتي من عالم الصمت المستكين. كانت الناقة تأتي بأفعال تزيد في الرغبة اشتعالا. تلوي عنقها نحوي بغية تقبيلي. أحاول القفز فأعجز. أتعلق بعنقها قافزا، فإذا بصوت المرأة الغريبة يرتفع مقهقها. ترتج أرجاء الصحراء. أنظر حولي فلا أجدها ولا أجد الناقة. أجلس عابثا

برمال الصحراء. كانت الرمال تنبض، تتشكل، تتجسم، تستحيل إلــى المرأة الغريبة. تمسي الرمال تلك المرأة. تهتف بتشفٍ:

– إنها أنا أيها الساذج، أنا الحقيقة.

يرفض عقلي الإذعان. تقول:

– جرب وسوف ترى.

أتأمل الرمال المجسمة بصورتها. أخلع ملابسي و ..... أدفن نفسي في الرمال النابضة!!

فبراير1996 – زهرة البستان

الولـــي

يتعالى نقيق الضفدع ليصنع سيمفونية ليلية موحشة. ركود الهواء يكاد أن يخنق الجميع؛ فخرج الخلق إلى حواري القريـــة يتـــسامرون. تهب نسمات رقيقة من قبل الترعة معبقة برائحة الـــروث و الـــدريس والمصارف. خوار البهائم يتفاعل مع نقيق الضفدع فيكمـــل اللوحـــة الليلية المعتادة.

يتناقش نفر من الناس حول أسعار المواشي و محصول الموسم و كيف أنه لم يؤت الأرباح المنتظرة. يتبادلون أكواب الـــشاي القاتمـــة كحلكة الليل بينما "براد" الشاي يغلي ببطء، يبدأ في التزايد على موقـــد النار أمامهم. يتبادلون لف السجائر و تدخينها بنشوة يفتقـــدونها طيلـــة نهارهم. ينتحي بعض شباب القرية أحد الأركان لتدخين سجائر البانجو برائحتها النفاذة.

تنطلق صرخة قاسية تشق هدوء الليل ليتعالى صـــياح الـــدجاج المذعور. تعاود الصرخة رنينها. يسرع الرجال مـــذعورين صـــوب مصدرها. بيت سيد القرية و ملاذهم. يقول أحدهم:

- يا لطيف اللطف يا الله ، ربنا يستر، خير إن شاء الله.

يتساءل آخر:

- خير؟ إيه اللي حصل يا أم شربات؟

بحسرة بينما يداها تصفع وجهها بطريقة لطم عجيبة:

- الحاج عبد القوي، الله يرحمه.

يتعالى صوت الرجال:

- لا اله إلا الله

- كان راجل طيب و بيخدم الناس كلها.

- كان أصلح الخلق، يصلي جميع الفروض في أوقاتها.

تنطلق زوجته في الصراخ اللاطم وشق صدرها. يبزغ بياض لحمها المكتنز ليضئ ظلمة الليل بضوء فسفوري شهواني. ترتمي أرضا ناثرة التراب على رأسها. تتقلب على الأرض بطريقة مجنونة لتنحسر ملابسها عن فخذين ممتلئين بيضاوين. ينظر إليها شباب القرية بعيونهم الجائعة. يتلصصون في كشف المزيد. يطأطئ الرجال رؤوسهم ليقول أحدهم بنخوة غاضبة:

- قومي استري نفسك يا مرة .

تأخذها النسوة إلى الداخل بينما هي في تمام انهيارها.

***

يتحوّط الرجال حول البيت بينما عيونهم مسافرة في رحلة أبدية مع ظلمة الليل. يذكرون الموت و ساعة الحساب و عذاب القبر و نعيمه وفضائل الميت وكرمه عليهم في الأيام الفائتة. يقول أحدهم:

- ابعتوا حد يستعجل خروج تصريح الدفن يا رجال، إن إكرام الميت دفنه.

يرد آخر:

- راح رضوان لتخليص الأمر من المركز ، ربنا يسوقه.

- تأخر كثيرا و انتصف الليل.

يقول آخر:

- الساعة كام دلوقت؟

- واحدة بعد نص الليل.

- كان أطيب الرجال، وكان راجل بتاع ربنا، في يوم كانت مراتي حامل و الألم كان زاد عليها قوي ، والوقت، ماكانش وقت ولادة ، حكيت الأمر للحاج عبد القوي فجاء معي و ملّس على بطنها فلم تشعر بأي ألم ، الله يرحمه كان وليّ.

يقول آخر:

- كان دايما سرحان ، و إذا قعدت معاه تلاقيه يرد السلام بالرغم من إن الطريق خالي ومفيش حد ألقى عليه أحد السلام، كنت دايما بستغرب ، في يوم سألته وأنا خايف ، فقال أن سيدنا الخضر مرّ من أمامه و معه نفر من الصالحين وألقوا علينا السلام.

تقشعر أبدان الرجال بينما يتبادلون حكاياتهم عن الرجل الصالح.

***

تجلس النسوة في فناء الدار متشحات بالسواد القاتم. عيونهن شديدة الحمرة من أثر البكاء. يتبادلن الحديث الباكي عن الرجل الصالح الذي لن يعوّض. يحاولن التخفيف عن امرأته التي فقدت رجلا عقمت النساء عن الإتيان بمثله.

***

في أحد الأركان تجمّع بعض الأطفال يلهون غير عابئين بالأمر. ينفصل أحدهم متجها نحو غرفة الميت. يدفع الباب ببطء ويدخل. النعش الراسخ يتوسط الحجرة المظلمة إلا من شعاع الضوء المنسرب من فرجة الباب الضيقة. تختمر في ذهن الطفل الشقي أحد الأفكار الشيقة لإخافة ذويه. يحكم إغلاق الباب. يشعل مصباح الغرفة وسرعان ما يطفئه.

***

يقول أحد الرجال:

– خرجت أنا و الحاج عبد القوي في يوم عشان نستحم في الترعة وفي الوقت اللي كنت بخلع فيه جلبيتي بصيت.....

يصمت الرجل و قد ارتسمت على وجهه إمارات الفزع والدهشة. يزعق أحدهم:

– فيك إيه يا عبد الستار؟

يقول بعد فترة صمت و قد تلجلج لسانه:

– الحاج عبد القوي بيولع النور و يطفئه.

– يا رجل... باين عليك بدأت تخرف من....

و أضيء النور وأطفئ مرة أخرى فانطلقت الأصوات هاتفة:

– مدد... مدد يا شيخ عبد القوي مداااد ، بركاتك يا سيدنا.

***

لم ينتبه الأطفال لانفصال أحدهم عنهم. وفجأة أضئ نور غرفـــة الميت فانطلقوا مذعورين نحو جلسة النساء ليخبروهن:

– أمه ، أمه ، فيه عفريت في غرفة الميت.

ترد المرأة بغضب:

– امشي يا ولد.

يقول آخر:

– النور بيولع و يطفأ لوحده.

تتحرك إحدى النسوة نحو الغرفة لتطمئن الأطفال.

***

يبتهج الولد الشقي لسماعه أصوات الذعر الصادرة من رفاقـــه، يكرر التجربة، يتسلل إليه صوت أقدام تقترب. يسرع بالاختفاء داخل الدولاب خشية العقاب. تدخل المرأة في إثرها الأطفال. تقول غاضبة:

– عفاريت ولاد عفاريت، والله ما عفريت إلا انتم، يلا أخرجـــوا بعيد.

صوت جلبة تأتيها من الخارج. تطفئ النور وتنظر من خلف زجاج النافذة لتستطلع الأمر. ترى الرجال مـــصوبين عيـــونهم نحـــو النافذة. تسرع خارجة كيلا يراها الرجال بشعرها المكشوف.

***

يتجمهر أهالي القرية ذاهلين. مثبتة عيونهم نحو النافذة. يلوح خيال آدمي يقف خلف الزجاج. يزداد لغطهم و صياحهم:

– الله أكبر، سبحان الله.
– الشيخ بيبص علينا البصّة الأخيرة، لا يهون عليه فراقنا.
– كان تقيا ورعا، ووليا من أولياء الله الصالحين.
– بيقولوا أنه صاحب السيد البدوي و المرسي أبو العباس.
يقول أحدهم:

– في يوم كنت رايح لأرضي قبل الفجر وشفته من بعيد بيمشي على الماء وكأنه على الأرض بالضبط، يومها حطيت طرف جلبيتي في حنكي وقلت يا فكيك ، فسمعت صوته مالي الدنيا حواليا وقالي " لا تخبر أحدا بالأمر يا عوضين، إنها كرامة".

آخر: – فاكرين يوم شب الحريق في بيت أبو سريع؟ كان الحاج معانا يومها بيساعدنا في الإطفاء، يومها رأيته بعيني اللي حياكلها الدود وهو ماشي في النار وبقى وسطها تمام و معرفش لحد دلوقتي منين كان بيجيب الماء اللي كان بيطفي بيه، وبالرغم من إنه كان في مركز النار إلا أنها كانت بردا وسلاما عليه.

تنطلق أصوات قليلة مصدقة على كلامه ليقول آخر:

– كنا قاعدين في يوم وفجأة لقيناه بينتفض وبيقف في خشوع، ولما بصيت له نغزني وقال لي " قف أيها الزنديق سيدنا النبي يعبر من أمامنا و معه الصحابة".

يقول أحدهم:

– لازم نبني له مقام يليق بيه؛ عشان يزوره الناس ويتبركوا بيه، دا ولي من أولياء الله الصالحين، و لو معملناش كدا ممكن يغضب علينا ويحرق البلد باللي فيها.

***

يخرج الولد الشقي من مخبأه. يتجه صوب النافذة. يحاول فتح الزجاج. يجد في الأمر صعوبة. يجذبه بقوة فينجذب نحوه مصطدما بالحائط. يتحطم الزجاج ليسرع الولد جافلا خارج الغرفة. يتزايد لغط الرجال و هتافاتهم مؤكدة قدرة الشيخ وصلاحه وتقواه. تتفتق أذهانهم عن المزيد من الروايات و الكرامات المنسوبة إلى الشيخ، بينما نقيق الضفدع يتعالى صانعا سيمفونية رائعة مع خوار البهائم المحمل عبر نسمات الهواء الرقيقة، المحملة برذاذ الندى و رائحة الروث و مياه المصارف..



شعائر من كتاب الموت

صرخة أنثوية حادة بها الكثير من النشوة أفاقتني من غيبوبتي اليومية. لم تكن الصرخة طبيعية فتأملتها كثيرا. ممن تكون صدرت هذه الصرخة؟ فيها الكثير من صوت زوجتي. أوتكون قد أصابها مكروه؟ و لكن كيف هذا و أنا أراها إلى جانبي تغط في نوم عميق؟ بالتأكيد ليست هي. و لكن أليس هذا صوت شقيقتي تواسيها؟ أين هي؟ وكيف أسمع صوتها دون رؤيتها؟ أويكون الأمر أضغاث أحلام؟ و لكن كيف لي أن أرى وأسمع بوضوح بينما أنا مستغرق في النوم؟ ها أنا بالفعل أنام إلى جوار زوجتي الغائبة في غيبوبتها الخاصة. علّها الآن تحلم بأحلام سعيدة أو غير سعيدة، لست أدري، لكنها بالفعل نائمة. أجل.. ها هي يرتسم على وجهها شبح بسمة جميلة كأحلامها التي بلا شك ستكون هنيئة. و لكن من أين جاءت هذه الصرخة الجزعى؟ أحاول النهوض ولكني أفشل. شيء ما يجعلني مرتبطا بفراشي. أجاهد مستنفذا قدرا كبيرا من طاقتي فأستسلم لعجزي. أسترق السمع فإذا صوت شقيقتي الواضح تقول باكية :

- كان بدري عليكي يا حبيبتي .. قتلك و هو يذوب فيك عشقا.

عدم التجانس في الجملة جعلني أضحك ملء فيّ. من أين لها بهذا التركيب اللغوي العجيب؟ أعجبني النصف الثاني من الجملة؛ فجعلني

أتأمله طويلا. ولكن من هذا الذي يذوب فيها عشقا؟ هل هنــاك مــن يعشقها غيري؟ أوتكون خائنة؟ أحاول إبعاد الفكــرة عــن خــاطري، فأراها عارية تماما بينما يد ما تمتد متحسسة جسدها. إن مسام جلــدها غير الواضحة تتفتح كزهرة يانعة لتلك اليد الغريبة. أدقق النظر فــي اليد البضة التي تصول وتجول بلا مانع يعوقها. صوت مقرئ ما يعلو مرتلا :

– "فإلينا مرجعهم ثم الله شهيد على ما يفعلون".

أهز رأسي موافقا ومؤمنا على قول المولى عز وجل. ولكــن من أين لي بهذه اللحظة الإيمانية؟ أرى اليد تقترب وكأنها جزء مــن كادر سينما. يكتمل الجسد المتصل باليد فإذا بها شقيقتي متجردة مــن ملابسها. أندهش مرتعدا. ما هذا الذي يفعلانه؟ إنهما تتضاجعان فــي مشهد سحاقي قاس. أناديهما محاولا منع هذه المأساة المرتسمة أمامي. أنظر إليها حيث تستلقي جانبي محاولا إيقاظها إلا أنها قد اختفت. أهي تفعلها حقا؟ أذكر أنني قد سمعت ولولة على امــرأة مــا ربمــا هــي زوجتي، كما أن صوت المرتل ما زال صداه يملأ رأسي. إذن فهناك من مات، وهناك من يُبكى عليه و لكني عاجز عن معرفــة الحقيقــة. لماذا لم يحاول أحد إيقاظي؟ ومتي أخذتني هذه السنة من النوم؟ أذكــر أنني ضاجعتها مرتين أو ثلاثا، لست أذكر. كما دخنــت علبــة مــن السجائر، وقرأت كثيرا في "الظاهرة اللاواقعية"، بعدها احتسيت كأسين من النبيذ أو لعلهم عشرا، ثم تحــدثت مــع صــديقتي ذات العينــين الزرقاوين. هل تبادلنا الحب في الهاتف؟ و لكن أنَّى لنــا أن نتبادلــه

هاتفيا؟ أحاول ترتيب أفكاري المتناثرة بصعوبة. أشعر وكأنني في كابوس لا ينتهي. كان صديقي ذو الشارب الكث يقول لي دائما :

– هل جربت أن تساحق امرأة؟

كثيرا ما كنت أندهش. وهل لي أن أساحق امرأة؟ حينما كنت أسأله هذا السؤال كان يختفي وكأنه لا وجود له. إلا أن دهشتي تصاعدت حينما رأيت شقيقتي تمتص نهديّ زوجتي. أحاول تصحيح المأساة، فأرى قضيبا ضخما يملأ فراغ الغرفة قد انبثق بين فخذي شقيقتي. يملؤني الفزع. بالتأكيد ستقتلها إذا ما حاولت إتيانها بهذا الشيء العظيم. أناديهما للحد من وقوع المأساة، إلا أنهما – ويا للغرابة – اندمجا بعد الاندساس العظيم و كأنه لا شيء. إن الأشياء تأخذ بعدا آخر غير ذلك البعد المألوف. شيء من اليقين انتابني أن هناك شيئا لا واقعي يحدث. أجول ناظرا حولي. زجاجة خمر فارغة تماما جوار مجموعة الكتب التي قرأتها بالأمس. أجل، وها هي أعقاب السجائر التي لا حصر لها بجوارها. ضيق شديد يثقل على صدري حتى لكأن الهواء المحيط له وزن يكاد أن يقرب من مئات الأطنان. أرى باب الغرفة منفرجا بعض الشيء، وهناك ضوء ما يأتيني منسربا من فرجته. إذن فثمة من يجلس في الخارج. أجل، إن صوت الولولة والنحيب يأتيني واضحا جليا. كما أن صوت أطفالي الصغار الذين لا يكفون عن الضجة يتردد بين الفينة والأخرى. ها هو صوت زوجتي يوبخهم، به شيء من النشوة الممتزجة برنة حزينة ثكلى. صوت المرتل أسمعه في الخلفية الصوتية للجميع. صوت أحدهم ينطلق :

– وحدووووووه .. كل من عليها فان.

يرد عليه آخرون :

– ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام.

تزداد دهشتي المتصاعدة. من هو الذي مات؟ أوأكون أنا؟ ولكن كيف يتأتى هذا بينما أنا أرى و أسمع ما يحدث حولي؟ أذكر أن الذي ولولت عليه شقيقتي قبل مساحقتها لزوجتي كان زوجتي و ليس أنا. ها هو صوت صديقي ذي الشارب الكث يواسيها :

– لا تحزني .. كفاك فخرا أنه مات وهو في قمة شموخه العلمي.

إذن فهو يقصدني أنا. أحاول مناداته فأرى الباب يزداد انفراجة ليدخل مجللا بالسواد بشاربه الضخم، الذي يكاد أن يغطي وجهه بأكمله. ينظر نحوي وقد بدت على وجهه بسمة لا معنى لها، ثم يطأطئ رأسه مبديا الكثير من الحزن العميق. تدخل زوجتي متشحة بملامح الحداد. كان منظرها مثيرا للضحك بوشاحها الأسود الذي تلفه حول رأسها بينما باقي جسدها عار تماما. صديقي ذو الشارب الكث يطوقها بذراعيه. إنهما يمارسان طقوسا جنسية جنائزية. يتجرد من ملابسه فتصدمني الدهشة. هناك هوة سحيقة لا قرار لها بين فخذيه. هل هذا ما كان يقصده حينما قال لي هل جربت أن تساحق امرأة؟ أسمعه يهمس بحميمية :

– لا بد أن نفعل؛ فتلك كانت رغبته رحمه الله.

إن الوغد يساحقها. كيف لي أن أمنعه؟ أتأمل وجهها الذي يكاد أن

يتفجر من فرط اللذة فتتصاعد شحنة الغضب داخلي. صوت المرتل ما زال يملأ الخلفية السمعية للمشهد. أوأظنه الموسيقي التصويرية؟ ما هذه الأفكار التي تملؤني؟ يبدو الأمر وكأنه شريط سليلويد سينمائي متحرك. أذكر مقالي الذي كتبته عن رفض الميتافيزيقا الدينية مدعما بالكثير من البراهين. كان عن فيلم ذهني قاس يذكرني بما أراه الآن. ينتهي صديقي ذو العينين الزرقاوين مما يفعله فيعود إلى ذكورته. لون عينيه يذكرني بصديقتي التي هاتفتني بالأمس. هل هناك ارتباط ما بينهما؟ أذكر أنني قد رأيت زوجتي مستلقية جواري عند سماع الصرخة. أجل، ها هو وجهها الذي يملؤه الفزع يقترب من وجهي. لم هي جزعى هكذا؟ عيناها فيهما الكثير من الرعب. إنها تخبط صدرها بجنون حتى لتكاد أن تمزقه. ها هو الدم يكاد أن ينبثق من لحمها الطري. إنها تمسح شيئا ما ينزلق من زاويتي فمي بغزارة. حالة الاختناق الشديد تعاودني. أكاد أشعر وكأن تنفسي قد صار مستحيلا. حالة ما من القيء الشديد تمنعني من التنفس. أحاول القيام ولكن شعوري بالأثيرية- وكأنني لا شيئ- يتملكني فأعجز عن الفعل. أراها تناديني بقوة أعرفها من تعبيرات وجهها، إلا أن صوتها يأتيني متلاشيا و كأنه صادر من أعماق جب سحيق فيصل إلى مسامعي وكأنه أطياف صوت. أقول لها مطمئنا :

- لا تجزعي، ليس هناك شيء.

إلا أن الأمر يبدو و كأنها لا تسمعني فتزداد نحيبا وولولة. بكل ما أوتيت من قوة أحاول تهدئتها ولكن الوهن المسيطر عليَ يجعلني أكف عن المحاولة.



استربتيز

لم تكن المرة الأولى التي يحادثني أخي في الأمر. أشعر بالدماء الصاخبة تنطلق إلى مخي بينما يقول:

– لازم نبيع البيت، دا قديم وواقع مفيش فايدة منه، ليه مصرّ على الاحتفاظ بيه؟ دا المتر فيه عامل عشرين ألف الآن.

أتأمله لأبذل مجهودا خارقا في شد أنفاسي. يواصل:

– لو ما وافقتش حتبقى عثرة في طريق مستقبلنا وسعادتنا، دا حقنا بالميراث، وأنا وإخواتك قررنا بيعه سواء بموافقتك أم بدونها.

– تطول فترات صمتي المتأملة. تتضخم أوردتي ضائقة بدمائها الغاضبة. أبدل ساقا على الأخرى متململا. أشعل سيجارتي العاشرة بعصبية. يقول:

– أنت أكثرنا احتياجا للفلوس دي؛ زوجتك مريضة وأولادك محتاجين مصاريف كثير ، ليه مش عايز توافق وتسعد نفسك وتسعدنا معاك؟

أنفجر فجأة كالبركان. تنطلق الكلمات كالقذائف وكأنها كانت تتحين كلماته الأخيرة بينما الزبد ينتحي شدقي:

– إنتوا ما بتفكروش إلا في نفسكم ومشاكلكم؟ نسيتم أمكم اللي ساكنة في نفس البيت؟ وحتعملوا فيها إيه؟ حترموها في عرض الطريق كنفاية؟

- حناخدها عندنا تقضي في بيت كل واحد مننا أسبوع.

أزعق:

- يعني حتشردوها عند كل واحد مننا أسبوع وكأنها لاجئة، يـــا ريتها كانت ماتت قبل ما نعمل فيها كدا.

يقول وقد بدا نفاذ صبره:

- إحنا قررنا البيع وإذا كنت مش عايز إنت حر في حقك.

بتحدي:

- مش حتبيعوا ما دمت حي أُرزق.

- يبقى مفيش قدامنا إلا القضاء.

بحسرة مندهشة:

- سنتقاضى أمام المحاكم؟

- أنت اللي بتدفعنا لكدا بإصرارك.

❊ ❊ ❊

أنحشر في الأتوبيس بمعجزة يعجز عنها الشيطان. أشعر بجسدي محمولا بين أكداس اللحم اللزجـــة. أحـــاول لمـــس الأرض بقـــدمي فأعجز.أنفاس الخلق من حولي تزهق أنفاسي. أحس بقطرات العـــرق اللزجة تنبثق من مسامي لتخط لها العديد من المجاري. أشعرها كدبيب النمل على وجهي و رقبتي. أحاول تجفيفها فأعجز. أتأمل الجالـــسين حاسدا إياهم. يشعل أحدهم سيجارته. أختنق حينما ينفث دخانها الكثيف في وجهي. تنطلق دوامات الدخان في الجو الثقيل الخانق فتتحول إلى

سحابة كثيفة خانقة. يلتصق أحدهم بظهر الفتاة الواقفة أمامه. يتحسسها بينما عيناه تدوران بحذر من حوله. حينما يطمئن أنه غير مراقب يضغطها بقوة. تنظر إليه بلحظها وكأنها لا تدري عمدية فعله. تقول بدلال مثير:

– حاسب كنت حاقع.

يتزايد ضغطه بهدوء وقد اطمأن إليها بينما هي تدفع نفسها للخلف لتقوية التضاغط المتلاحم. أتأمل حالة التواطؤ الناشئة بينهما. يستهويني الأمر فأتأملها بشفتيها الدقيقتين وصدرها المرتفع. يتقبب سرواله لتتسلل يده متحسسة ردفيها. تأخذه الرغبة فيحاول فتح الجيب. يرتج الأتوبيس مترنحا لتلسعني سيجارة جاري. أتأوه فينظر إليّ غير مبال. يلكزني أحدهم بمرفقه ليقول بغضب:

– أنت أعمى؟

أعتذر بالرغم من عدم خطأي. يتوقف الأتوبيس بميدان التحرير. أسرع بالهرب من جحيمية البشر المكدسين. أشد أنفاسي بقوة دافعا بها إلى صدري المستضيق.

***

أتجه إلى عملي غير واع بما حولي. أحاول التنفس بصعوبة نتيجة ضيق صدري. صوت فرملة قوية يعيدني إلى الواقع عند عبوري الميدان صوب شارع طلعت حرب. أبتعد منتبها بينما صوت السائق يتردد صداه في رأسي:

– ماشي نايم يا حمار؟

ألمح عجوزا بملابس سوداء مهترئة تجلس جوار "ومبي" بينما أحدهم يحاول إبعادها و كأنها نفاية. أبطئ خطاي متأملا إياها بينما صورة أمي العجوز تأخذ مكانها. يخرج فتى وفتاة متخاصرين. تصطبغ شفتاها بلون قرمزي داكن وكأنها انتهت لتوها من مأدبة دموية. يترجرج نهداها بانسيابية مثيرة في كل خطوة تخطوها فتذكرني بفتاة الأتوبيس. تقترب منها المرأة مستجدية فتنظر إليها الفتاة باشمئزاز. تبتعد مع فتاها المخنث قائلة:

– إيه الأشكال دي؟

تنطلق ضحكة وقحة من فتاها ليبتعدا متخاصرين. أجرّ أقدامي صوب شارع قصر النيل. بينما صورة المرأة لا تزال عالقة في ذهني.

***

أقف منتظرا المصعد كثيرا بينما البواب يرمقني بعينيه. أذكر أننا تشاجرنا بالأمس لأنه رغب مني "بقشيش" حينما أوصلني للدور الثالث ولم أعطه شيئا. حينما مرّ الكثير من الوقت أطلب منه المساعدة إلا انه قال بهدوء بينما عيناه في الاتجاه المعاكس:

– الأسانسير عطلان يا بيه.

أتجه صوب السلم. تتطرق إلى أذني تحية أحد الزملاء. ألتفت نحوه فإذا بيده تندس في جيب جلباب البواب بورقة نقدية. يسرع ليفتح له المصعد و يصعدان معا.

***

أدخل مكتبي تائها في أفكاري المزدحمة وقد امتلأت غضبا من البواب اللعين. أحيي زملائي فلا يلتفت لي أحد. يواصلون حديثهم الضاحك بينما يجلسون فوق مكاتبهم المزدحمة التي بضيق بها المكان. أنظر لمقاعدهم الشاغرة فيبدون لي كتلاميذ مدرسة تمردوا على النظام. يتبادلون السجائر ليقول أحدهم:

– شفت قناة الـ xxl أمس؟

يرد الآخر منتشيا:

– يااه... كان عليها حتة فيلم سكس خلاني عملت تلاتة بعد ما شفته.

أدفن نفسي فيما أمامي من ملفات. أطلب فنجالا من القهوة. يظل عم محمد واقفا محملقا في. أقول مندهشا:

– فيه إيه؟ مالك؟

يرد بوقاحة عجيبة:

– الحساب يا بيه.

تذكرني لهجته أني لم أحاسبه منذ فترة طويلة. أنكمش في ذاتي لأقول:

–هات القهوة دلوقتي يا عم محمد و حبقى أحاسبك بعدين إن شاء الله.

– آسف يا بيه، لما تبقى تحاسبني ابقى أطلب، حسابك تقل قوي و أنا ورايا أولاد بربيهم.

أترك الرجل يذهب لأنكمش في ذاتي. أغرق في مستنقع الشعور

بالهوان. يسود الصمت من حولي تماما حتى خيل إليّ أنــي صــرت وحيدا. أتأملهم متسائلا:

– من أين راحة البال التي أراها على وجوههم؟ أيمكن أن أكون مثلهم؟ ولكن كيف وأنا عبئي ثقيل؟

أنتفض فجأة على صوت أحدهم:

– مالك شايل هموم الدنيا كلها فوق راسك كدا؟

ألتفت إليه قائلا:

– زي ما أنت عارف الهم ثقيل واليد قصيرة .

يبتسم بخبث:

– وليه ما تكونش طويلة؟

مندهشا:

– تقصد إيه؟

– ولا حاجة ..فتّح مخك وسترى الوجود جميلا.

يضحك مقهقها ليقول:

– على أي حال القهوة اليوم على حسابي... بس روّق بالك.

***

أستغرق في الملفات الكثيرة المكدسة أمامي لأصب فيها همومي المتكاثرة. أتناسى ما يدور حولي من صخب العديــد مــن الــزملاء ليقترب مني أحدهم:

– إيه أخبار الموظف الجديد اللي بيتمرن تحت إيدك؟

– أحواله سيئة تماما، تصور.. ست شهور لحد دلـوقتي ومـش عارف يكتب تقرير واحد.. أعتقد أحيانا أنه جاء هنـا عـن طريـق الخطأ.

– وحتعمل إيه؟

– بالتأكيد حارفع عنه تقرير إنه غير صالح للعمل ولا يجيد فعل أي شيء، دا بيجي يوميا عشان يقعد وبس وكأنه سد خانة، هو عبء كبير على العمل يضره أكثر من نفعه.

– أعتقد أنك غلطان في اللي بتقوله.

أندهش قائلا:

– ليه؟

– لأنك عارف انه جا هنا بوصاية كبيرة ، والمدير نفسه عـايزه هنا.

– لكنه مش حيفيد العمل في شيء ، دا ما بـيعملش أي حاجـة إطلاقا.

– يا أخي وأنت مالك؟ هي كانت مصلحة أبوك؟

غاضبا:

– ما دمت أتحمل مسئولية تمرينه ورفع تقرير عنه فهي مصلحة أبويا.

بهدوء محاولا إقناعي:

– فكر كويس ، ما تخربهاش فوق راسك.

– طظ في الكبير، أنا بشوف شغلي كما يمليه عليّ ضميري.

يقوم بهدوء مبتعدا لينادي بسخرية:

- القهوة حسابها عند البيه يا عم محمد، ابقى خلي ضميره ينفعه.

* * *

أبدل قدم مكان الأخرى متململا طول انتظاري للمصعد. تقف إحدى الزميلات بجواري. تومئ لي برأسها محيية. أبادلها التحية بينما يصل المصعد. أتنحي لها لتسبقني داخلة. أتأملها متنسما رائحتها النفاذة. تقع عيناي على نهديها الممتلئين، ملابسها شديدة الضيق حتى أني أشعرها ستتمزق. تتأملني بجرأة وكأنها تعرض نفسها عليّ. تتجاذب معي أطراف الحديث. تسألني عن سبب تجهمي الدائم. حينما أخبرها تقول:

- دي أمور كلنا بنمر بيها ، المهم انك يكون لك مكان آخر ترفه فيه عن نفسك.

بغباء:

- تقصدي إيه؟

- يعني مثلا مالكش صديقة تخفف عنك؟ مكان تاني غير البيت ومشاكله والأولاد؟

أؤكد لها أني لا أعرف أيا من هذه الأمور. فتقول :

- أنت مالك مش عايش معانا؟ حاول تعيش شوية.

يصل المصعد إلى الدور الأرضي فأتركها خارجا بينما تتجسم أمامي حالة التواطؤ التي رأيتها في الأتوبيس صباحا.

* * *

أسير شاردا غير واع بما حولي. يتناهى إلى سمعي قول أحدهم:

– أبويا فضل يضيق عليّ لحد ما عرف إني بسرقه فبهدلني، والله كنت حقتله وقتها لكني سيبت له المحل، حارفع عليه قضية حجر وأقول أن قواه العقلية لا تحتمل.

تصطدم الجملة بأذني فأتذكر ما يريد أخوتي أن يفعلوه بأمي. أحدهم يمد يده بمذلة طالبا المساعدة فينظر إليه الآخرون بتأفف. أسرع صوب ميدان التحرير. أتأمل الميدان المزدحم. أتجه حيث يتجمع الآخرون منتظرين الأتوبيس. أتوسط الحديقة التي أمام المتحف المصري. أتأمل إحدى الفتيات. كانت تبدو لمن يراها وكأنها تكاد أن تذوب حبا في فتاها الذي يجاورها إلا أن عينيها اللتين تشيران لآخر تفضحها. أصرخ من أعماقي. يلتفت إليّ الآخرون غير مبالين وكأنهم ينظرون إلى معتوه. أبدأ في التعري بينما الناس يلتفون حولي متأملين في دهشة ساخرة. يبدو الأمر وكأنهم يشاهدون فيلما كوميديا. حينما أتعرى تماما يتصايح الناس من حولي. يحاول رجال الأمن إلباسي إلا أني أبدأ في الرقص أمامهم وكأنني بالفعل مجنون. حينما ييأسون من محاولة إلباسي تهبط عصيهم الغليظة على رأسي، صدري، ساقي، أحس سخونة دمائي السائلة إلا أنها كانت تزيدني رغبة في الرقص .



مدينة خارج حدود العقل!

واثق أنا من كون وجود مدينة هنا. لقد كانت حـولي البارحـة. ولكن أين ذهبت؟ إني لا أرى سوى قفرا ومجموعـة مـن الكائنـات الهلامية المتصارعة، المتحركة كتروس آلة عملاقـة. أتراني فـي كابوس ثقيل؟ لا أظن؛ فأنا في تمام وعيي. يتعالى صوت داخلي:

- إذن فلتجرب شيئا يثبت لك أنك لست واهما.

أنتفض غضبا. أقول للصوت:

- لا تحدثني من وراء ستار، اظهر أمامي كي أراك.

يتجسم أمامي مثيلي. أصافحه بحرارة وكـأني لـم أره منـذ سنوات. أعانقه متسائلا:

- كنا هنا البارحة، أليس كذلك؟

- أعتقد أننا لم نهاجر، ولكن معالم المكان مختلفة تماما.

- وتلك الآلات الإنسانية....

أكمل مستدركا:

- أنكون قد هاجرنا هجرة شعورية؟

- لا أظن؛ فنحن لم نتحجر بعد، ولا أظنها هجرة عقلية، ما رأيك في تجربة اختبار الحلم؟

- أظنها فكرة صائبة ولكن عليك أنت الخـضوع للاختبـار وإلا أدت إصابتنا إلى موتنا جميعا.

– لا بأس، أعرف أني مثيلك وأنك تستطيع إنقاذي حال إصابتي، ولكن بهذه المناسبة أود أن أنبهك أنك مازلت أنانيا.

– هذا افتراء.

– لماذا؟ ألم نتفق أن الاختبارات والمغـامرات سـتكون بيننـا بالتبادل؟

– ولكنك إذا.....

– لا داعي للمبررات؛ فأنا أبغضها.

– إذن فلتبدأ الاختبار.

ننتقل من إفريز الشارع إلى عرضه. أحد الآلات الإنسانية يقـود سيارة بشعة المنظر. تنتابني حالة من الغثيان حينما أرى عادمها. كان دما متقيحا. ما أن اقتربت بمنظرها البشع إلا وألقيت مثيلي أمامها. لم تتوقف بالرغم من كون المسافة الفاصلة مئات من السنوات الضوئية. دهسته تحتها. ينطلق من حنجرته صوت يرج أرجـاء الكـون. أراه يتزلزل متخلخلا. بدأت موجات من التضاغط المتتالي تنتـاب العـالم حولي. يملؤني الذعر. أسرع بحمل مثيلي والاختباء في الركن القصي من الكون. أقول معاتبا:

– ما هذا؟ زعقتك كادت تؤدي إلى كارثة كونية.

– أعتذر، لم أحتمل السيارة الوحشية.

بينما انهمكنا في الحديث إذا بأحد الكائنات الهلامية يطل علينـا. سلط نحونا شيئا يشبه في جملته ذراعا بشريا مـسلط الـسبابة. قـال بصوت مقزز:

– ماذا أتى بكما إلى الركن القصي من الكون؟

أقول بقرف:

– كانت هناك موجة تضاغطات هادمة فخفنا انهيار الكون.

– هل معكما قروش وجنيهات نارية؟

– لا، فأنا لا أملك سوى قلبي وكل ما ترغبه بعده فهو لك.

– ليس له قيمة في عالمنا.

ثم قال بصوت هادر:

– هيا، فلتخرج من زاوية الكون ما دام ليس معك ما يؤهلك للبقاء فيه.

أسرع بطمس مثيلي داخلي وأهرب إلى أحد الميادين الكبرى. كانت الضجة تكاد أن تصم الآذان. أخرج مثيلي كي يؤنسني في وحدتي. بينما نقف مشاهدين ما حولنا أضغط يده منبها قائلا:

– أنظر هناك.

كان هناك مسخا يقتل آخر مقطعا إياه بمنشار ضخم بينما وقف شرطي على مقربة منهما يراقبه ملتذا بالمنظر البشع. تنطلق إلى رأسي ملايين من علامات التعجب. يسرع مثيلي إلى الشرطي قائلا:

– ألا ترى ما يفعله؟ إنها جريمة قتل مع سبق الإصرار.

ينظر إليه الشرطي متقززا ليقول بينما يكاد يبصق عليه:

– ابتعد عن وجهي أيها المسخ، ولا تتدخل فيما لا يعنيك.

أندهش حتى أكاد أن أجن حينما رأيت المسخ يخرج من ملابس الضحية بعض الجنيهات النارية التي يتعاملون بها ثم يتركه آلاف من

القطع الصغيرة الممزقة. أرى الناس يمرون بجوار الأشلاء فتنطلق من أفواههم كلمات تأفف مستنكرة عدم الحفاظ على جمال ونظافة الطريق العام. يصاب مثيلي بحالة إغماء من فرط ذهوله حينما يرى جامع القمامة يجمع الأشلاء الممزقة ليلقيها في صندوق القمامة. تجيء عربة البلدية لتجمع النفايات ومنها الأشلاء. أسرع بإفاقة مثيلي قائلا:

– لا عليك، يبدو أننا في عالم أسطوري ولكنه أفظع من الكابوس.

– وما العمل؟ لابد أن نفعل شيئا.

– أقترح الذهاب للشرطة لنبلغ عما رأيناه وكذلك الإبلاغ عن تراخي رجل الأمن.

– فكرة صائبة.

نسرع صوب أحد أقسام الشرطة. يستقبلنا مسخ عجيب. يفتح محضرا لأخذ أقوالنا، حينما نخبره بما حدث يقول:

لابد من محاكمتكما.

أندهش. أستفسر عن التهمة المنسوبة إلينا. يقول:

عدم رضاءكما بقيم العصر.

يأمر بالقاءنا في الحبس. لا أصدق ما يحدث لنا. أتعرف هناك على رجل يختلف عنهم تماما. أشعر بأني عدت مرة أخرى إلى عالمي. أسأله عن التهمة المنسوبة إليه فيقول:

– لست أدري، كل ما أدريه أني كنت أصلي في أحد المساجد فتم القبض عليّ بتهمة إقامة شعائر غامضة في إحدى أماكن الآثار القومية

وتشويه الصورة الحضارية أمام الغير.

في اليوم التالي تمت محاكمتنا. نطق القاضي بهدوء:

- وبعد الاطلاع على القضية وثبوت التهمة على المتهمين حكمت المحكمة حضوريا بنفيهما إلى نقطة العدم الثلجية مليون سنة ضوئية نتيجة لاعتراضهما على مستحدثات العصر.

أشعر باختناق شديد. أنظر إلى مثيلي قائلا:

- هيا فلتنضم إليّ كي ننسحب.

وبينما تتم عملية الانضمام أفتح صدري لأوقف قلبي عن النبض بينما أجسادنا تنتقل بسرعة البرق إلى نقطة العدم الثلجية.



لزوجة

عيناها مغروستان في عينيّ بوله شديد. أتأمل سوادهما العميــق الذي أستعذبه فينقلب إلى لون رمادي طيني كلون النيل الكامن أمامنـــا حينما تنتقل عيناي بينهما. يخيل إليّ أحيانا أنها ابنة النيل الموهوبة له. أتكون بالفعل عروسا من عرائسه؟ لابد؛ فمثلها لا أعتقد أن لها وجودا في عالمنا. تتماس يدانا بنعومة فتنطلق رعدة شديدة تــشمل جــسدينا. أتأمل الكون المحيط. الكورنيش على امتداد البصر مكــتظ بالعــشاق. يخيل لي أن النيل يشاركنا عشقنا فيسير متمهلا. أتوه في عوالمها فلا أدر كم من الوقت مرّ. أفيق فجأة على صوت أجش قاس يقــول لــي آمرا:

– تعال كلّم الباشا.

أنتفض منزعجا على صوته. ألتفت لأرى اثنين ضــخام الجثــة يحيطان بي بينما سيارة الشرطة قابعة خلفي تماما.ألمح حول مقودهــا أحد الضباط يجلس شامخا. أحاول محادثته، الاستفسار عن السبب إلا أنه يأخذ بطاقتي ليأمرني أنا وحبيبتي بالركوب في الخلف. أحاول أن أشرح له أننا في وضح النهار ولم نفعل أي فعل فاضح يخدش الحياء إلا أنه كان يبدو وكأنه أصم تماما. أيأس متسائلا:

– ولم نحن؟

ولكني حينما أتأمل الكورنيش أدرك أننا قد نسينا الوقــت تمامــا

فصار الكورنيش خاليا إلا منا. ولكن هل هذا داعيا كي يحتجزنا؟ لم أدر بنفسي إلا ونحن في مكتبه. مرّ عليّ الوقت وكأنني في عالم آخر منفصل تماما عما يدور حولي. تأخذني دوامات من الهواجس فأغيب عن الوعي. أراه يجلس أمامنا بكبرياء قائلا بعد وضع قدمه في وجهينا:

– اسمك إيه يا عم الحبّيب؟

بهدوء:

– أعتقد أنه أمامك في بطاقتي.

ينقلب وجهه صارخا:

– بتقول إيه يا روح أمك؟

ولم أدر إلا ببرق عجيب لامع في عينيّ. تنطلق مني آهة عالية فإذا بالمخبر الواقف خلفي يقطعها بلكمة قوية في فمي. أرى دمائي تسيل غزيرة من أنفي. أسمع صوتها يأتيني من خلف حجب الضباب التي تلفني، كان منتحبا صارخا. أسمعها ترجو الضابط أن يأمرهم كي يتركوني. أراها من بين اللكمات تميل على كفه تقبّلها. تنتابني حالة شديدة من الغضب. كيف تهين نفسها ؟ أزعق:

– لا تفعلي ذلك مع هذا الحيوان.

ما أن نطقت بالجملة إلا وأشار إليهم برأسه. لم أكن أعرف معنى الإشارة ولكني فوجئت بهم يقيدونني منهالين عليّ بالعصي الغليظة. أراه ينظر إليّ بشموخ متشفيا بينما هي تحاول مستميتة تخليصي من بين أيديهم. أراه يجذبها نحوه بقوة. أصرخ من بين آلامي:

- دعها يا ابن الكلب.

ينظر نحوي بصرامة. علامات الحقد والغل تبدو على وجهه فيقع قلبي في قدمي. تنطلق منه ضحكة عالية بها الكثير من الجنون. يتركها كي يجلس خلف مكتبه. يشير بيده فيتوقف الضرب. أشعر بنوع غريب من الألم حينما يتوقفون عن تعذيبي، وكأني كنت قد استعذبت الأمر. يشير إليها بالجلوس فتفعل على مضض. أراها ترتعد منتحبة بينما تسحب أنفاسها على شكل شهقات متقطعة. يقول بوقاحة:

- كنتوا بتعملوا إيه يا بت؟

تنطلق الدماء في عروقي فائرة. أقول بوهن:

- أنت لم تأت بنا من إحدى الشقق المشبوهة، لا تردي على هذا المتهتك.

- ينظر تجاهي بعينين قانيتين. يبتسم بسمة لزجة. يخرج من خلف مكتبه ليقف خلف مقعدها. أراه يتشمم شعرها فأكاد أن أنفجر غضبا. يتحسس كتفيها المرتعدين، تهبط يده قليلا متحسسة ظهرها بينما أراها تكاد أن تموت رعبا. حينما يحاول فك سوستة فستانها الخلفية تصرخ لتنشب أظافرها في وجهه فيسل منه الدم. تبتعد منبهرة بالمفاجأة. أسبه بألفاظ لم أتصور أن أقولها من قبل. أراه يزيل الدم المنسال على وجهه ليقول بهدوء:

- سأريك الآن رواية لم ترها في حياتك مكافئة لك ولرجولتك التي أراها فيك.

يشير بيده فإذا برجاله يجذبونها. يمزقون ملابسها فأتمزق معها.

يجردونها فأتجرد من روحي. يعبثون بجسدها فأرى كياني وكأنه انتثر إلى أشلاء. يتعرى أحدهم لينغرس فيها. أراهـا تقـاومهم، تـركلهم، تستخدم أظافرها، أسنانها، تزعق من أعماقها كي يغيثها أحد. تطالبني بعمل شيء من أجلها. أشعر بالعجز يقتلني مفتتا إياي. تتأمل عيناي دم بكارتها المستباح فيتلوّن العالم من حولي بلون أحمر قان. يتجرد آخر من ملابسه لينغرس في مؤخرتها. أراها وقد صارت بينهما كالشاطر والمشطور. يتبادلونها فيما بينهم بينما تخور مقاومتها تماما. أراها وقد صارت جثة هامدة. يقول أحدهم:

– إيه البرود دا؟ دي عاملة زي لوح التلج.

يرد رئيسهم بهدوء:

– أومال هو لزمته إيه يا بقر؟

يهجمون عليّ. يجردونني ليعيدون الكرة معي. أشعر بمـؤخرتي تتمزق حينما يدخلني أحدهم. أموت خزيا بينما الغضب المعتمل داخلي يكاد أن يفجرني. أنظر إليها عاجزا. عيناها كألف خنجـر يمزقنـي. يأمرني أحدهم:

– قول أنا مرة.

أرفض ملتزما الصمت. يحاولون إعادة الكرة معها؛ فأصـرخ من أعماقي لأجيبهم بما يريدونه. أقولها قوية تهز الكون من حولي:

– لاااااا... لا تفعلوا... أنا مرة.

يتركونها، فيأمرهم الضابط المنتشي وكأنه كان يشاهد فيلما مـن أفلام البورنو الساخنة بالقاعنا في الحجز. حجرة ضيقة ليس بها شيء.

أعجز عن النظر إليها. أشعر بمهانة قاتلة. أقول:

- حبيبتي.

تنظر إليّ بعينين فقدتا الحياة. لا أدري ماذا أقول لهـا. أحـاول البحث عن كلمة لها معنى لكني لا أجد. تتأملني طويلا. أشـعر فـي نظرتها تقزز واستهانة وألم. تنطلق فجأة في ضحكة مجلجلة بائـسة. سرعان ما تتشنج باكية. أحاول الاقتراب. تصرخ فجأة:

- لا تقترب.

تقول بعد فترة طويلة:

- لم نعد كما كنا.. لم نعد نصلح لبعضنا البعض، لقد متّ.

أشعر بوخز شديد في مؤخرتي المهترئة. غضب شديد يجتـاحني ليشملني. أرغب في تحطيم كل ما حولي، قتل أي إنسان. أبحث عـن شيء أفرغ فيه غضبي فلا أجد. ألتفت إليها. مكومة على بعضها فـي وضع الجنين. أسرع بإبعاد عينيّ عنها، لا أسـتطيع احتمـال رؤيـة عريها. أناديها هامسا. ترد وكأنها في عالم آخر:

- لا تفعل مرة ثانية.. لا أستطيع سماع صوتك يناديني.

أصرخ بقوة. تقع عيناي على قطعة بناء معدنية جـوار الحـائط أتناولها غارسا إياها في بطني، صدري، لتستقر في القلب تماما.



الخروج من الكابوس

في المرحلة الضبابية من إغماءتي اليومية العميقة أراني نائما وكأنني قد انفصلت عن ذاتي. يبدو لي الأمر و كأني أشاهد أحد العروض السينمائية المثيرة.أجل، فها هي غرفة نومي المنظّمة أراها رأي العين بينما صوت التكييف اللعين يشرخ صمت الليل بأزيزه المتواصل. بل ها هي زوجتي في إغماءتها العميقة هي الأخرى تغط في نوم عميق و قد اطمأن جوارها طفلنا الوليد الذي يحلم بأحلامه الطفولية الجميلة. أوتراني أتوهم؟ و لكن أنّى يتأتى لي ذلك بينما أرى شبح ابتسامة ترتسم على وجه طفلي فأبتسم له سعيدا؟ أراقب نفسي جيدا. أتراني أحلم الآن بذات الأحلام؟ بالتأكيد لا؛ فهناك ضيق ما أراه يرتسم على ملامحي المنقبضة و كأني أكاد أن أختنق. إني بالفعل أحرك رأسي يمنة و يسرة كمن يلفظ أنفاسه الأخيرة. لا بد أن هناك شيئا ما يخفى علّي. أقترب بهدوء من جسدي المتوتر محاولا معرفة الحقيقة. أندمج فيه ببساطة فأدخله. أرى ظلا ما يشبه في جملته إنسانا أو كائنا شبيها يقترب منّي بهدوء. أتأمله جيدا فإذا الأشياء تبدو واضحة جلية من خلال جسده الأسود الشفيف. رعدة قوية تشملني حينما يقف جانبي لتنتصب على أثرها الملايين من الشعيرات التي تغطي جسدي. شعور قوي بكون قيد حديدي يكاد أن يخنقني يحتويني. بكل ما أوتيت من قوة أحاول الحركة فأفشل. شلل أصاب مركز

إرادتي فأفقدني القدرة التامة على الحركة. يزداد الضيق الجاثم على صدري فأكاد أن ألفظ أنفاسي. أحوّل نظري تجاه زوجتي النائمة جواري. أناديها بقوة لكنها كانت تسعد بأحلامها. يراودني الأمل حينما أراها تتقلب إلا أنها سرعان ما أعطت ظهرها لي لتمارس طقوس نومها المطمئنة. موجة من الإحباط الشديد تشملني. يبدو لي الأمر وكأني أزعق من أعماقي ولكن ما من أحد يستطيع سماعي. أحاول مناداتها مرة أخرى،متمسكا بأهداب الأمل الذاوي حينما يمسك الظل الأسود يدي رافعا إياها. حينما أفشل في جذب انتباهها أنهره آمرا إياه أن يتركني. يخرج صوتي مشوه الملامح وكأنه قادم من أعماق جب سحيق. تنتبه زوجتي الراقدة جواري فتستيقظ فزعة على صوتي المشوه. تحاول إيقاظي برعب فأعود إلى رشدي بينما يدي التي كان يمسك بها ما زالت عالقة في الهواء.

* * *

في اليوم التالي كنت أتأمل تجربتي السابقة بتمهل. كانت قد عاودتني كثيرا في الفترة الأخيرة حتى كدت آلفها وكأنها واجب يومي. كنت قد أمسيت تائقا للنوم كثيرا كي تعاودني التجربة فأتأملها على مهل، وكأن الكابوس قد صار صديقا أحبه وأرغب في حضوره اليومي. كنت قد هيأت نفسي اليوم للتعرف عليه عن قرب. خرجت زوجتي لقضاء شيئا ما لم أسألها عنه؛ فرغبتي الشديدة في الانفراد بكابوسي جعلتني أتعجل خروجها. حاولت التحايل على النوم حينما

صرت وحيدا إلا أني لست أدري متى غشيتني سنة من نوم فرحت في سبات عميق. أراه قادما بعيدا بعيدا في خطواته الواثقة المتحدية. نوع من التوتر يغشاني بهالة شديدة من الضيق. أحاول النطق بصعوبة حينما يقف لصيقا بي:

– ماذا تريد؟

صوت ما قادم من اللاجهة:

– لا شئ.

حالة الدهشة القصوى التي تنتابني تجعلني ألتزم الصمت طويلا. أتأمل ملامحه المطموسة تماما وكأنه لا شئ. مجرد ظل أسود شفيف لإنسان ما. أقول بغيظ:

– إذن فما سر زيارتك اليومية لي؟

– انه القدر المسلط علّي وعليك منذ الأبد.

– أي قدر هذا؟ هل لك أن تزيدني فهما؟

بحيادية غريبة:

– قدري أن آتي للناس في أحلامهم فيصيبهم الضيق الشديد المصحوب بفقد الإرادة، وقدرهم أن يحدث لهم ما يحدث حين ظهوري لهم.

ينتابني شعور ما بكون رنة حزن بسيطة في صوته فأشفق عليه. أكاشفه:

– أحزين أنت من شيء ما؟

بغضب وكأنني قد أهنته:

- بل غاضب من وصفكم لي بالكابوس.

مندهشا:

- و كيف نصفك إذن في حين أنك تصيبنا بالاختناق؟

يهتف بشكل أكثر غضبا:

- كيف تجرؤ على مناقشتي؟ انه أمر لم يفعله أحد مـن أبنـاء جنسك من قبل.

مبتسما:

- أعلم ذلك، لكني أدمنتك حتى صرت واقعا يوميا.

بعد فترة صمت طويلة:

- إذن ما رأيك في لعبة شيقة نلعبها معا؟

بدهشة:

- أية لعبة؟

- سآتيك يوميا فأجثم على صدرك، إما أن تقاومني وتصدني أو أحاول خنقك حتى تكاد أن تلفظ أنفاسك.

- أستقتلني بالفعل؟

- بالطبع لا.. ومن سيمارس معي لعبتي بعد موتـك؟ سـأتركك حينما تكاد أن تختنق.

بعد تفكير عميق:

- لكنها لعبة خطرة.

- إذن فأنت لا توافق عليها.

رغبتي الشديدة في خوض التجربة تجعلني أنطق هاتفا:

- بالتأكيد أوافق، ولكن هل ستفي بوعدك لي بعدم خنقي؟

مبتسما:

- بالتأكيد، ألسنا أصدقاء؟

***

صار كابوسي الجميل يأتيني أكثر من مرة يوميا حتى صرنا بالفعل أصدقاء، بل انه بدأ يغير في قواعد اللعبة دون استشارتي فبات يباغتني في يقظتي بالرغم من اتفاقنا بإتيانه لي أثناء نومي فقط. كثيرا ما كنت أشعر بتوتر ما يصيب جسدي أثناء اليقظة ليصلّبه فأعرف أنه قد بدأ لعبتنا الخطرة. استمر الحال على هذه اللعبة شهرا كاملا أذكر أنه قد حاول مرتين أو ثلاثا خنقي حتى كدت أن ألفظ أنفاسي بالفعل. يومها غضبت منه و هددته إذا هو فعلها مرة أخرى فسوف تكون قطيعة بيننا و لن ألعبها معه ثانية فعاهدني على عدم فعلها، إلا أنه كان كثيرا ما ينقض العهد الذي بيننا ويعيد الكرة مما أورثني كراهية شديدة له وتربصت له شرا!

***

كنت قد اتفقت مع الكابوس على اللقاء اليوم بعد منتصف الليل فوافق. أقبّل زوجتي وولدي منتظرا إياهم حتى يغطوا في نومهم. أهيئ نفسي لتأخذني سنة من نوم. لم أدر كم من الوقت مرّ علّي مذ ذهبت في غيبوبتي إلا أني انتبهت على صوت ما يعاني اختناقا شديدا. أنظر حولي فإذا بها زوجتي متقلصة الملامح تكاد أن تختنق. أرعد غاضبا:

– أخرج منها أيها الوغد... ليست هذه قواعد اللعبة التــي اتفقنــا عليها.

إلا أن ملامحها المتقلصة كانت تزداد تقلصا بينما جسدها يبــدو متيبسا وكأن هناك من يجثم عليه. أحاول إيقاظها بكل ما أوتيت مــن حيلة إلا أنها كانت تكاد أن تلفظ أنفاسها الأخيرة. أسرع إلى سكين حاد شارعا إياه محذرا:

– إذا لم تخرج الآن قتلتك.

إلا أن تجاهله لي وملامح زوجتي التي تلفظ أنفاســها جعلانــي أهوى بقوة على صدرها، عنقه، بطنها، في محاولة يائسة لقتله بينمــا أرى الدماء المنبثقة كالشلال هادرا من الفتحات التي صنعها ســكيني الحاد.

العري

لم تكن المرة الأولى التي أتشاجر فيها مع حسنين. ولكني اليوم أشعر بانقباض شديد يجثم على صدري حتى ليكاد أن يزهق أنفاسي. أزفر بصعوبة. يخرج الهواء من رئتيّ لزجا ثقيلا:

– يا خفي الألطاف نجنا مما نخاف.

يتحرك لساني مرددا العبارة بتلقائية. صرير الصراصير الليلية يختلط بنقيق الضفدع في سيمفونية عجيبة أخالها ترجرج الكون فتخرج جثثه من قبورها. تتتالى الزفرات المختنقة محاولا شد أنفاسي. آخذ الطريق لبيتي المتهالك خلال الأراضي الزراعية. ركود الهواء يزيد من اختناقي فأفتح أزرار الصديري. تعود الذاكرة فأراه يقول:

– كيف الحال يا أبو حمدان؟

أنتبه على الصوت المتوعد. أصوب نظرتي إليه بينما أضع كفي أمام عينيّ لأحميهما من ضوء الشمس البازغ. أقوم مرحبا وقد انزلق قلبي في قدميّ بينما أنفاسي تتلاحق:

– أهلا يا معلم حسنين، أتفضل، خطوة عزيزة.

أسرع للمقهى المجاور. أشد أحد الكراسي لأناوله إياه بعد مسحه بطرف جلبابي بينما يرتفع صوتي المرتعش:

– حاجة ساقعة للمعلم يا وله.

أجلس على فرشتي التي أبيع عليها محصول العام. تتباعد

الضوضاء المميزة للسوق لتتلاشى. أخال الصمت قد سيطر على كل ما حولي. يخترقه فجأة صوت المعلم حسنين فيمزقه لينزف ضوضاء:

– كيف حال البيع يا أبو حمدان؟

– نحمده يا معلم، الحمد لله على كل شيء.

يطيل صمته الذي يزيدني رعبا في انتظار ما سينطق به. يقول:

– ولما البيع تمام ليه ما بعتليش إتاوتي؟

أصمت فيرعد هادرا:

– ليه ما بتردش عليّ؟

أقول بخوف وقد رأيت بعيني الكثيرين ممن اعترضوا على طلباته وما آل إليه حالهم:

– يا معلم الحال واقف وأنا ما بعتش شيء والله، وكل اللي عرفت أكسبه ميكفيش العيال وأمهم.

يزعق:

– وهي دي مشكلتي يا روح أمك؟ هو أنا بحميكم وسايبكم تبيعوا ببلاش؟ مبقيتش تكية لسه.

– وإيه اللي أنا أقدر أعمله؟ أأكل العيال وأمهم منين؟ أشحت؟

– افعل ما بدالك، مش مشكلتي ، المهم إتاوتي ، وأنت عارف إذا ما جبتهاش ممكن يحصلك إيه، ولاّ أنت متعرفش؟ لو مكنتش تعرف اسأل العيّل في بطن أمه و هو يقول لك.

– يا معلم الجماعة بتاعتي محتاجة....

ينظر إليّ بعينين ملتهبتين ليقول:

– لو وصلت لإنك سرّحتها وعرضت عليها مش مشكلتي، المهم انك تدفع اللي عليك.

كانت الطعنة قوية. مزقتني الجملة الطاعنة في شرفي لآلاف من القطع. التهبت الدنيا أمامي. انطلق الدم فائرا لتنطلق قبضتي كالقذيفة في وجهه بحركة لاإرادية. أحاطني صبيانه. أوسعوني ركلا ولكما. طرحوني أرضا. لم يتركوني إلا على شفا الموت ولم يستطع مخلوق أن يتدخل. سمعته يقول بينما يده على فكه:

– حتشوف نتيجة عملك، انتقامي قريب جدا.

تنطلق نسمة هواء باردة حركت الهواء من حولي فأفاقتني. ألتفت حولي. الظلام يحيطني من جهاتي الأربعة. أسير مرتعشا بينما أتساءل:

– إيه اللي يقدر يعمله؟ يقتلني؟ ولم لا؟ هو لا يخاف أحد، حتى الحكومة لا تخيفه؛ وإلا كانوا قد قبضوا عليه منذ زمن، الناس بتقول إن الحكومة تعرف ما يفعله وتتغاضى عنه لأنه يعاونهم، ولكن... إيه اللي بايده أكثر من قتلي؟ أولادي؟ لا... مش حيجرؤ، وإيه ذنبهم عشان ياخذهم بذنبي؟ ممكن يخرجوا عليّ الآن ويقتلوني، تمام، وبعدها يرموني في المصرف ولا من شاف ولا من دري.

أحث الخطو نحو بيتي. أدق الباب داخلا. تواجهني امرأتي منزعجة. تكاد أنفاسها أن تنسحب حينما ترى وجهي:

– إيه اللي بيك يا أبو حمدان؟ إيه الجروح دي؟

أرد ضائقا محاولا الابتسام:

- ولا حاجة، كنت بحاول تعدية المصرف فوقعت على وشي.

بحنان:

- أدخل أغسل وشك على ما أحضر العشا.

- لا، ماليش نفس.

أرتمي على فراشي. يحلّ عليّ تعب اليوم كله. الأولاد نائمون على ظهر الفرن. أفواه جائعة. أذكر منذ يومين لم يكن لدينا ما يكفي وجبة يومنا. وهذه المرأة من لها بعدي؟ أنتبه على صوت عمدان السرير المتهالك يصدر ضوضاء مزعجة من جراء استلقاءها جواري. أتساءل:

- إحنا معانا كام يا أم حمدان؟

- حوالي ثلاثين جنيه.

أقول في نفسي:

- ولا تكفي شيء، أنا مديون بخمسة وعشرين.

أشعر بيدها تمسح وجهي:

- مالك يا أخويا؟

أتأملها صامتا. يقتلني القهر. تزداد تساؤلاتها بحنو يفتتني. أضمها في صدري متنهدا. أقول:

- ولا حاجة.

أتحسسها لأضمها أكثر. أرفع جلبابها إلى صدرها. أنغرس فيها لتنطلق آهة خافتة:

- الولاد يا أبو حمدان.

تقولها بتدلل وفحيح هامس. يزيدني ضعفها قوة. أشتعل لأشعلها معي. تنطلق تأوهاتها خافتة راجية. يزداد صخب الفراش. تجذبني إليها بشدة. تكتم صوتها خشية سماع الأولاد لها. يزداد اشتعالي بينما أرى المعلم حسنين في خيالي؛ فأرغب في إيلامها. أراه يضربني أمام الخلق في السوق؛ فأكزّ على حلمتيها. تنطلق صرخاتها الخافتة فأزداد. أراه يقع مضرجا في دمائه بعد أن أوسعته ضربا؛ فتهدأ ثورتي بعدما أفرغها فيها لأستلقي جانبها. تتكوم على نفسها لتغط في نوم عميق.

ما أن استغرقت في نومي القلق إلا وسمعت رعدا يهز الباب الذي كاد أن ينخلع. أصرخ خائفا:

– مين؟

لا يرد عليّ أحد. يزداد الطرق. أسرع بفتحه لتقابلني ركلة قوية في بطني. أنطرح أرضا. يدخل صبيان المعلم حسنين. يقيدونني. يدخل ناظرا إليّ بتشفٍ:

– كيف حالك يا أبو حمدان؟

يقولها بحقد واضح. أرد بخوف:

– عايز إيه يا معلم؟

– حتعرف حالا.

ينظر لزوجتي التي انتحت ركنا وقد أحاطت الصغيرين بذراعيها. أراهم يرتعدون. يعلو صوته:

– هاتها هنا يا وله.

يسرع أحد صبيانه ليجذبها نحوه. تقاومه، تركله، تعضه؛

فيصفعها بقوة ليرميها تحت قدميّ المعلم. صوت الصغيرين يعلو منتحبا، يقول المعلم بهدوء عجيب:

– اخلعي ملابسك يا امرأة.

أهتاج ثائرا لكرامتي. أحاول التخلص من قبضاتهم. يركلني أحدهم بين فخذيّ لتنطلق آهتي تشق الكون. أراه يمزق ملابسها بينما هي تصرخ مستجيرة بي. تعضه فيصفعها حتى لكأن المكان قد ارتج من قوة الصفعة. يعريها تماما لتنهشها النظرات. يقول أحدهم:

– حلال عليك يا معلم.. مرة زي الفرسة.

يتأملون نهديها المنطلقين الفتيين. تمتد يده إليهما تعتصرهما. تقاومه فيركلها في بطنها. تجثو وقد استنفدت قواها. يخلع ملابسه ليتحسسها. يدخلها فأشعر بوخز بين فخذيّ يقتلني. تنطلق صرختها فتتضخم في أذنيّ حتى تكاد أن تمزق طبلتيهما تماما. تتلاشى المسموعات. أراه يعلوها بينما هي كالجثة من تحته. يداه تعبث بجسدها. حلمتاها بين شفتيه. يتحرك صاعدا هابطا ليمزقني. ينتهي منها ليتركها كي يتبادلها صبيانه. أراهم يتركونها جثة هامدة. يبول أحدهم عليّ قبل خروجه. أسمعها تئن ألما. أنظر حولي. الصغيران كأنهما تمثالان من الشمع. أتحامل واقفا. ألملم أشلاءها قدر المستطاع. تبكي فأجهش معها باكيا. أولول كمن فقدت زوجها. أنتهي من نوبة البكاء الشديدة التي انتابتني فأجيل النظر فيما حولي. تنتابني نوبة ضحك غريبة. يزداد ضحكي بينما عيونهم تتأملني وكأني جننت. أخلع ملابسي لأقف عاريا. أجري بقوة تجاه المصرف مصرّا على إلقاء نفسي فيه.

لحظات صالحة للقتل

عيناها أبرز ما فيها. أتعلق بهما مندهشا. بالرغم من بدء إسدال الظلام أستاره إلا أنها تبدو لامعة كالوهج. تتلاشى ضجة أبواق السيارات. صوت صفارة الشرطي المنظم للمرور. لم أعد أرى غيرها. أنتبه على ضوء لمبات النيون التي أضاءت فجأة. كرنفال الإعلانات الملونة تضيء ثم تطفئ ثم تضئ فتظلل وجهها بظلال لونية خافتة تزيده رقة وفتنة. تلاحظ نظراتي المتمهلة على قسمات وجهها فتبتسم بإيماءة خفيفة. أبادلها الابتسام. أقترب منها في زحام ميدان التحرير. أقف جانبها. تزداد ابتسامتها اتساعا. أقول محاولا كسر حاجز الصمت:

– مرتبطة؟

– على الإطلاق.

– ما رأيك؟

– أين؟

– لست أدري.

تقول مبتسمة:

– إذن اتفقنا.

أضحك مبتهجا. أتساءل:

– تؤمنين باللحظة؟

– أحب أن أعيشها بصدق.

– كيف؟

– هكذا بلا تفكير في الآتي؛ فأنا لا أملكه.

سعيدا:

– ستكون صحبتنا سعيدة.

– أعتقد هذا.

ننطلق وكأننا طفلين مازالا سعيدين بهذه الحيـــاة. يغـضب منـــا الشرطي الواقف بوسط الميدان. يشير إلينا بالعبور من خلال دهـــاليز المترو. نبتسم في وجهه. أقول:

– بالتأكيد هو مضغوط.

– أجل، وإلا ما غضب.

نلتفت نحوه قبل هبوطنا. كان رئيسه يوبخه. الممــرات شـــديدة الهدوء بالرغم من كون الوقت ليس متأخرا. نتجه صوب شارع طلعت حرب. نتأمل الخلق. السائحون يزحمون المنطقـــة بـــشكل اعتيـــادي. أحدهم يسير مطوقا فتاته بينما رأسها توسدت كتفه. منظرهما متآلفـــا رائعا. أقول:

– لم لا نفعل مثلهم؟

لم ترد. أنظر إليهـــا. أرى عينيهـــا مـــصوبتين تجـــاه الحـــزب الناصري. مندهشا:

– ماذا هناك؟

– أعشقه، بالفعل أكاد أعبده.

- من؟

- ناصر.

أصمت. تتساءل:

- ماذا دهاك؟

- لست أدري، مشاعري تجاهه مذبذبة.

- أتكرهه؟

- أحيانا، وأخرى أحبه... أعذريني هو الآخر كان مذبذبا تجاهنا.

- من أنتم؟

- المقهورون.

تنظر إليّ بعينين يملؤهما العطف وربما هو الحب المفاجئ، لست أدري. تلتف ذراعها حول وسطي مطوقة إياي. تضمني بحنو لا مبرر له. تهمس قائلة:

- أحبك.

- هكذا في لحظات؟

بتأفف:

- **please** لا تكن تقليديا.

أضحك لأقول لها بطريقتها:

- **ok, don't worry**

تبتسم لتحث الخطو ضامة إياي إليها بقوة. نجلس على زهرة البستان. أقول:

- هذا المكان أعشقه.

لا تعلق. أطلب لها نارجيلة ولي أخرى. تنبعث قهقهة عالية بالقرب منا. أتبين من خلالها صوت محمد مستجاب. ألتفت خلفي. أراه جالسا بجلبابه ومعطفه الشهيرين وحوله حواريوه. أبتسم. التفت إليها. تسحب دخان نارجيلتها بعمق لتنفثه في وجهي. ترشف قهوتها السادة لتقول:

– كم هي لذيذة تلك المرارة.

– مرارة القهوة أم اللحظة؟

– كلاهما سواء، لا فرق.

– يبدو أنني أحببتك.

– لقد سبقتك في هذا.

أتأمل شفتيها المكتنزتين. قرمزيتين، ممتلئتين، تدعواني للتقبيل. تتابع نظرتي بعينيها. تبتسم قائلة:

– ما رأيك؟

– كم أرغب هذا.

– وما المانع؟

– الجو المحيط.

– لكنه لن يستطيع منعي.

– كيف؟

تتناول كفي برقة. ترفعها إلى شفتيها فتقبلها. تقول:

– هكذا أكون قد أشبعت بعضا من رغبتي.

تصمت برهة لتقول:

- الكبت حقير.

أتناول كفها الصغيرة. أغرقها لثما. أسمع صوتا ليس بالغريب يفيقني:

- كيف الحال يا بطل؟

أنتفض من وقع المفاجأة:

- أهلا سعدني السلاموني، كيف حالك؟

- تمام.

أقدمهما للتعارف. يلقي علينا قصيدته الجديدة. أستمع إليه ممتزجا مع لهجته القادمة من أعماق الريف. أبدي ملاحظاتي على القصيدة. يتهمني بالتقليدية فأتهمه بالنرجسية ثم يعود بيننا الصفاء. يتشعب حديثنا في السياسة والأدب والجنس ثم الجنس، ثم الجنس. نتبادل النكات البذيئة لتعلو أصواتنا تتحدى الكون. يتأملها بنهم. تعلق عيناه على نهديها بوقاحة. تستاء:

- لا أحب هذه الفجاجة.

أقول مؤيدا لها:

- لو كنت امرأة لتقززت من طريقتك.

يقول ضاحكا:

- أنت تافه وابن تافه، لو كنت أنت امرأة لضاجعتك.

أضحك قائلا:

- أشكر الله أني رجل حتى لا يضاجعني أمثالك.

أبادلها نظرات الرغبة. تميل عليّ:

- ألم تشتق بعد؟

- ولكن كيف؟

أراها تقوم لتدفع الحساب. نادتني من بُعد. أستأذنه فيبصق على وجهي قائلا:

- كل هذا لك وحدك؟

أضحك وإياه. أنطلق معها. في شارع 26 يوليو عند ممر جراند أوتيل، تجذبني فجأة لتقبلني بعنف وكأنها تأكل شفتيّ. أمتزج معها فأبادلها القبل ممتصا لعابها. أطمسها في جسدي. نفيق على صوت فرملة قوية. أنظر في الساعة. الثانية بعد منتصف الليل. تقول:

- سرنا كثيرا.

كان ذهني مشغولا. نتجه صوب منزلي. ما أن أضع المفتاح بثقب الباب إلا وأسمع صوتا بالداخل. علّه أحد الأصدقاء؛ فقد كنت أعطيهم مفتاح الشقة كي يدخلونها إذا لم أكن موجودا. أطلب منها الانتظار. كان ظني صحيحا. أقول:

- متى حضرت؟

- منذ نصف الساعة.

- ألم تغضب في المرة الأخيرة وقلت أنك لن تأتي ثانية؟

يرد باسما:

- الظروف حكمت عليّ أن أعيش مع أحد الأنذال.

أرحب به على عجل لأتركه متعللا بميعاد. أفكر في أحد الأصدقاء. أتجه معها صوب ميت عقبة. لم يكن أحد بالشقة. يالها من

ليلة. أشعر بحركة بين فخذيّ. ندخل المصعد. تهبط يدها لأسفل. تمسكني برقة فأشعر بشد شديد. يقبب بنطالي. أطحنها بين ذراعي. تهبط كفي لتتحسس ردفيها. تدعكهما حتى ليكادا أن يمزقا. تعمل يدي في فك أزرار بلوزتها. ينطلق نهداها الفتيان. ألثمهما ممتصا. نتباعد لنخرج من المصعد. تقول وهي مازالت تلهث:

- عندي فكرة رائعة.

- أي فكرة؟

- لا تسأل، فقط تعالى معي.

تسرع بي نحو إحدى البنايات المرتفعة. نصعد حتى الطابق الأخير. على سطح البناية أتأملها تخلع ملابسها بينما أشعر بخوف من الارتفاع الشاهق في الدور الخامس عشر. حينما أراها عارية أبتسم قائلا:

- عبقرية.

تساعدني في خلع ملابسي. نفرش ملابسنا كي ننام عليها. أضواء الإعلانات الضوئية تنعكس على جسدها فتكسبه بهاء وقدسية. نهداها في أوج شموخهما. أشعر بالموجودات تتأمل جسدها البديع. أحتضنها بقوة حتى تكاد أن تدخل في ضلوعي الواهية. تتأوه منتشية. تستلقي على ظهرها لينفرج فخذاها. تطلب مني أن ألعقها. أرفض؛ فتنهض لتشرع في ارتداء ثيابها. أضعف أمام رغبتي. أوافقها؛ فأدفن وجهي بين فخذيها. أسمع صوتها تئن ملتذة. تهتاج. أشعر بأصابعها تجذب شعر رأسي حتى خيل إليّ أنها ستخلع فروة رأسي. تطبق بأصابعها

على كتفي حتى شعرتها قد انغرست في لحمي. تجذبني بقوة. تعدل من وضعها لتستلقي على بطنها. أقبل ظهرها. تقعى لتطالبني بمضاجعتها. تهمس:

- أحب هذا الوضع.

بعد انتهاءنا نجلس لندخن سجائرنا وقد توحدنا مع الموجودات راضين. أشرد بعيدا. أتأملها في عريها. رائعة. تتوسد كتفي العاري. لتقول بينما يدها تعبث بذكورتي:

- ماذا يدور برأسك؟

- أفكر في معنى حياتنا.

- عشها فقط بلا تفكير.

- كيف؟

- افعل كل ما يطرأ على رأسك في التوّ، عش لحظتك ولا تفكر في القادم.

أشعر بنفسي قد توترت مرة أخرى نتيجة عبثها بذكورتي.أنتصب مرة أخرى. أجذبها لتقف. أديرها بعنف ليكون ظهرها مواجها لي. تنحني بنصفها العلوي على سور البناية. أضاجعها بقسوة بينما رأسها ونهداها متدليان في الهواء خارج الحدود المادية لسطح البناية. أتأمل السيارات من هذا العلّ الشاهق. أتساءل:

- ماذا لو هبط المرء من هذا الارتفاع؟

أحاول إبعاد الفكرة عن ذهني؛ حتى لا يأخذني الدوار. تقول متأوهة:

- كم هو رائع أن تضاجع شخصا من هذا الارتفاع، إنها تجربة مثيرة.

تطول فترة مضاجعتي لها فتصرخ بقــوة منتــشية. تــستزيدني. أنتهي بينما جسدي يرتج في نهاية الفعل. أقول:

- ما رأيك في حياة اللحظة؟

تقول بينما جسدها يرتعش لذة:

- رائعة.

- إذن، لم لا تعيشيها للأبد؟

ينطلق ذراعاي بقوة دافعة إياها خارج نطاق المكان. أنظر لأسفل فأراها تهوى بقوة نحو الأرض بينما عريها يزداد قدسية فأمارس لـــه صلواتي النورانية. أرتدي ملابسي بهدوء لأهبط هادئا.

كائنات محدودبة تجلس القرفصاء

تأكلني الدهشة كلما توغلت في المسير. ما بـــال هـــذه المدينـــة المضببة؟! أحاول البحث عن مخلوق يؤنسني فتبتسم في وجهي الوحدة كي تمسي صديقي الحميم. على بُعد عدة ياردات أرى إحدى اللافتات متوسطة للطريق.

"مرحبا بكم في مدينة الضباب المقدس". في جانـــب آخـــر أرى لافتة ثانية "ممنوع الدخول لغير المحدودبين".

أندهش لآخذ طريقي إلى اللامعنى. ما أن أتخطى البوابة القصيرة التي جعلتني أستلقي زاحفا كي أعبرها، إلا وقابلني أحدب غليظ الوجه ليقول بغلظة نابعة من تقاسيم وجهه المتشققة:

– إلى أين تذهب أيها المستقيم الزنديق؟ ألم تقرأ اللافتة؟

أقول بوجل:

– قرأتها لكني لم أعرف المقصود منها.

– انه لغباء جد عظيم لابد وأن تُعالج منه.

– عفوا.. لم أعن أني لم أفهم لكني.. لكن.. حقيقـــة لقـــد أردت استكناه تلك المدينة.

يقول بعد تفكير عميق:

– ستكلفك الكثير أيها المستقيم، أمستعد أنت؟

– أجل، ما هي شروطك؟

يقول بخبث:

– سأقولها بعد نهاية رحلتك الاستكشافية.

ثم ردد متمتما:

– على الأقل ستكون مثلنا أيها المستقيم المارق.

تشملني رعدة خفيفة حين سماعي لعبارته المبهمة. يقودني خلفه نحو طريق مظلم ينحدر إلى مصب مائي. بدأ الضباب ينقشع رويدا. أشار بإصبعه إلى أحد المحدودبين. لاحظت أن وسطاه شديد الطول. أرى الآخر جالسا القرفصاء ممسكا بين يديه بمرآة مقعرة، واضعا إياها بين فخذيه المنفرجين. عيناه اللتان تنظران إلى إسته بهما نهم شديد وكأنه ينظر إلى امرأة فاتنة يرغب مضاجعتها. أتأمل وضعه فيخيل لي أن هناك شيئا ما محشور فيه.

ما أن أشار له دليلي إلا وأسرع نحو المجرى المائي متخذا وضع تمساح. لم تخف عليّ وسطاه التي أخرجها خلسة من مؤخرته قبل الاستجابة لدليلي. كان المنظر غريبا حين استلقاؤه في الماء. لست أدري كيف ظل طافيا. أطرافه أسفل الماء بينما لا يظهر منه سوى ذلك الاحدوداب الغريب. يعتلي دليلي ظهره مشيرا لي أن أتبعه؛ فأفعل. يتحرك الأحدب المائي بسرعة عجيبة لينزلنا على الشاطئ الآخر. أراه مائجا بالآلاف من المحدودبين. ينظرون إليّ بدهشة فيها الكثير من الاشمئزاز. يقول أحدهم لمرافقي:

– ابعد هذا المستقيم الآثم عنا؛ إنه لشيطان.

يقترب منهم مهدئا. يسود الصمت. يبدو أن الرجل له تأثير

السحر عليهم. أراهم يجلسون في جوانب شتى رجالا ونساء في وضع القرفصاء. النساء ضمرت أثداؤها لطول فترة مكوثهن على هذا الوضع الغريب فخيّل إليّ أن أثداءهن قد غاصت في أرجلهن أو أن أرجلهن هي التي غاصت في أثدائهن، لست أدري. تتتابع الأسئلة الحيرى على ذهني. كيف يضاجع رجال هذه المدينة نساءها؟ وما السبب في هذا الاحدوداب؟ ولم يجلسون القرفصاء؟ ثم ما سر تلك المرآة التي يمسكها الجميع بين أيديهم كي ينظروا من خلالها إلى ما بين أفخاذهم؟ يفاجئني صوت دليلي الأحدب الذي يبدو أنه قد فطن إلى ما يدور بخلدي:

– من حقك أن تتساءل لأننا اتفقنا منذ البداية على الثمن.

– إذن ما السر هنا؟

– سأقول لك.. لقد خلقنا جميعا مثلك هكذا، مستقيمون، ولكن آباءنا علمونا منذ الصغر على هذه الجلسة المحدودبة المقرفصة؛ فتشكل هيكلنا التكويني على هذا الوضع.

يحادثني بينما عيناي في رحلة غريبة مع أنابيب الغاز الماسورية المنتشرة في كل مكان. أقول:

– ولكن لم علمكم آباؤكم مثل هذا الوضع؟

يقول مندهشا وكأنه ينظر إلى مجنون:

– ألا ترى ما في أيديهم يا رجل؟ إنهم يقرأون كتابنا المقدس، فنحن في حالة تعبد مستمرة لا تنتهي.

أقترب بحركة لا شعورية منهم. الجميع يمسكون بين أيديهم مرآة

صافية على جانبيها قطع ورق بيضاء مغلفة بإطار كتـــابهم المقـــدس بينما المرآة بين أفخاذهم. أرى النساء في هذا الوضع ترتفع وتنخفض في حركة ديناميكية منتظمة على ما يشبه العـــضو الـــذكري. أتابعـــه ببصري لأراه نابتا من الأرض. الرجـــال يـــضعون وســـطاهم فـــي مؤخراتهم. عيونهم مسلطة على أنفسهم المنعكسة في المـــرآة بـــشبق. تخرج أصوات التأوهات كهمهمة غريبة يخالها السامع قراءة تعبديـــة طقوسية. أقول زاعقا:

– أي عبادة تلك أيها الرجل؟ إنهم يمارسون طقوسا جنسية شاذة تحت ستار العبادة، يبدو أنكم جميعا مرضى.

ما أن لفظت جملتي إلا وانطلقت كائنات المدينة كلها خلفي. كانت حركتي شديدة الخفة. أسمعهم يضجون بينما ألـــسنتهم تلهـــج بكلمـــة واحدة:

– الجحيم .. الجحيم.

أسرع الخطو نحو أنابيب الغاز الطبيعي التي تملأ أركان المدينة. أفتح صماماتها. أشغل ثقابا فإذا بالهواء كله يغلي. أتأمل مجموعـــات المسوخ المحدودبة من خلال اللهب المموج بينما رائحة الشواء تنطلق إلى مخي من خلال رئتيّ. أشعر بخدر لذيـــذ بينمـــا أتمـــتم محـــاولا الخروج:

– الجحيم لم يكن إلا بعقولكم أيها المسوخ..

شطحات موت حيوية

- ما زال في العمر بقية...

كثيرا ما كنت أقولها. أذكر جلستنا. أبتسم لتنسال الدموع سريعة على وجنتيّ. أذكره يقول:

- ما بالك كسول؟ انهل من الحياة...

أداعبه بعبارتنا المحببة:

- ما زال في العمر بقية.

أغفو فيلوح لي مبتسما بنظارته السميكة. لـه أجنحة كأجنحة الطير. يحلّق فوقي فأسمع حفيف الهواء من حولنا. أسأله عن حالـه. يقول:

- لولا الموت لنهلت من الحياة؛ الموت كئيب.

أنقبض. أسمع صوت عجلات تصرخ على الإسفلت في الشارع المجاور. أنهض مذعورا؛ فأسب السائق والدنيا بمن فيها. تقع عيناي على مكتبتي. أسرع نحوها. أقرأ حتى أنصهر فأنسى الكون. أذكر محبوبتي. أهاتفها فيجيئني صوتها الملائكي ناعما رائقا. أسألها:

- كيف حالك؟

تقول بهمس يذيبني:

- أحبك.

-أريدك الآن.

- لم؟
- أشتاق إليك.

وكأنها كانت تنتظرها. جاءت تقول:

- كلمتك أذابتني.

أتأمل عينيها الواسعتين. أضمها فننصهر. أحتويها فنضحى كيانا واحدا. أضاجعها فنرتوي. تقول:

- ما بالك؟ أشعرك تنهل منّي حتى الثمالة.

أقول شاردا:

- لم يعد في العمر بقية.

منزعجة:

- لم تقول هذا الكلام؟

مستدركة والدموع تلمع في مقلتيها:

- أرجوك، لا تتفوه به ثانية.

أفاجئها:

- ما رأيك في الخروج؟
- أين؟
- في أي مكان.

أجذبها مسرعا حتى لا أعطيها الفرصة للتفكير. في بار "ستلا" جلسنا. احتسينا الكثير من البيرة بشراهة. نظراتها قلقى. ألمحها فأهرب منها. يتساؤل:

- ماذا هناك؟ هل هناك ما يشغل بالك؟

أقول مبتسما:

- لا...لا شيء.

- إذن كفاك شرابا.

- انهلي منه... لم يعد في العمر بقية.

أراه أمامي جالسا على المقعد المقابل. يومئ لي برأسه محييا ثم يرفع الكأس محتسيا إياه. أبتسم له لأنتقل عنده تاركا إياها. أقول متسائلا:

- كيف رجعت؟ ألم تمت؟

- بلى، لكني اشتقت لكأس من تلك البيرة الملعونة فرجعت.

أضحك بملء فيّ لتنحدر دموعي غزيرة. أقول:

- كيف الحال هناك؟

متهكما:

- أيهما تقصد؟ الجحيم أم النعيم؟

- كلاهما.

- لا فرق، كلاهما سواء.

أشرد متأملا إياه. أقذفه بكأسي في وجهه لأتركه. يختفي رويدا. أخرج لعرض الشارع. أتوقف عند مكتبة مدبولي. أتأمل الكثير من الكتب المعروضة. تقع عيناي على "بؤس الفلسفة" فأضحك:

- أي بؤس يا ماركس؟

أراه أمامي. أقول:

- ألم أتركك في البار؟

– أريد مؤانستك.

– لست أبحث عن أنيس.

أتركه لأتأمل إحدى الفتيات في بنطالها الضيق، وصدرها الرائع الذي يكاد أن يمزق ملابسها. أشير إليها فتبتسم. أتساءل:

– إلى أين؟

– إلى اللاجهة.

– إذن هيا بنا.

في شارع أمين سامي أقبّلها. تنظر إليّ بدهشة. تقول:

– انتظر، لم التسرع؟

أردد:

– ليس هناك وقت، الأفضل أن ننهل منها.

نمتزج في إحدى القوارب الشراعية. أنصهر داخلها فتملأ تأوهاتها المنتشية أذنيّ. أتذكر معدتي الخاوية حينما أشعر بألمها. أسرع نحو أحد المطاعم. أعبئ الطعام داخلي حتى أكاد أن أنفجر. أخرج وقد أحسست بالتخمة. في أحد الأركان أضع إصبعي في فمي فيندفع الطعام وكأنني أبصق معدتي. أسمعه يضحك لتملأ ضحكاته الكون من حولي. أسبه رغم حبي له. أتذكر أن محبوبتي كانت معي. لست أدري أين تركتها. أجهد ذاكرتي بلا فائدة. أسرع نحو بيتي. أدخل مكتبي لأكتب الكثير عن السينما ومدى تأثيرها على العقل الجمعي. أشعر بالإجهاد. أخرج مرة أخرى فأشعر ببرد شديد. أتدثر بمعطفي متجها إلى لا شيء. رغبة عميقة في التسكع تمتلكني. أتسكع

على كوبري قصر النيل. أتأمل رواده. ممتلئ بالكثير من العشاق. أتأمل سطح الماء الهادئ فتحتويني رغبة مجنونة. أعتلي السور الحديدي. أقذف نفسي بهدوء تام لأردد:

- لم يعد في العمر بقية.



الولوج إلى عالم الدهشة

كنت دائما ما أشرد متأملا لحيته المشعثة الضخمة كلما رأيتــه. أبكي ثم أضحك؛ فهو يشبه القنفذ، أو بالأدق هو يشبه الأسد بتلك اللبدة الغريبة التي تأكل صدغيه ثم تنسحب عموديا وكأنها مغرّاه. يقول:

– إن الله يناديك يا أخي، فلب نداءه.

أقول ضائقا:

– دعه ينادي؛ فإننا على خلاف.

– كيف حدث هذا؟ لقد تركتكما على وئام المرة الفائتة.

– عندما مشيت بدأنا نلعب النرد فاختلفنا وتبادلنـــا الـــسباب ثـــم افترقنا.

– سأسألك سؤالا واحدا.. هل تحبه؟

– بل أخشاه؛ فجحيمه رائع ونعيمه مخيف.

– من شرب سكر، ومن سكر هذي، ومن هذي افترى.[1]

– إنك تهذي.

– إذن فأنا أفتري.

أذكره يوم كان إنسانا عاديا. يحب الحياة. يعيشها بانطلاق. مثقف يعيش بين فخذين ممتلئين رغبة. أذكر هتلر بشاربه المميـــز. كتـــاب كفاحي. مكتبة مدبولي. حزب التجمع. ماركس. ماوتسي تونج. نادين جورديمر. إعلان تأميم قناة السويس. الغزو العراقي للكويت. مذبحـــة

---

[1] علي بن ابي طالب

قانا. الفيتو. الفيتو مرة أخرى. وفاة ديانا. البوسنة والهرسك. انهيـــار هضبة المقطم. اغتيال فرج فودة. ممارسة حـــارة فانيـــة فـــي جـــسد محبوبتي. أول قبلة في حياتي. تخرجي من كليتي. أنتبه على صوته:

– ما رأيك في سهرة حمراء مع إحدى الأخوات؟ ستعجبك.

أفكر قائلا:

– إنهن لا يعجبنني؛ لأنهن سافرات الوجوه.

– وماذا في هذا؟ إنهن يطبقن شرع الله، ثم إن وطئهن لذيذ.

أتخيله كما هو رجلا ولكن بين فخذيه شقا عميقا. أقول له:

– انتظر، سأخلقك خلقا جديدا.

أسرع نحو صلصال لا أدري من أين انبثق. أشكّله علـــى هيئـــة نهدين. أسرع بالصاقهما على صدره. أساويهما فيصبحان من لحـــم. آخذ قطعة أخرى لأزيد له حجم الردفين فيتناسبا مع وســطه الــدقيق. أسرع بمضاجعته؛ فيتأوه منتشيا قائلا:

– ألم أقل لك أن الأخوات مثيرات؟

أقول بعد نهاية الفعل:

– أتدري؟ لي صديق مات وهو يمارس الجنس فحزنـــت عليـــه كثيرا، فعقاب الزاني عند الله شديد، بل والأدهى أنه كان مخمورا.

يقول صديقي الذي قد خلقته امرأة:

– دعك منه و تعالى لتضاجعني؛ فأنا في شوق إليك.

أقترب منها فانطمس فيها. نتفانى لنتشكل من جديد فإذا بي امرأة تساحق امرأة. أقبلها بعنف فتقبلني. أمتص نهديها بينما يدها على نهديّ تكاد أن تمزقهما. أشعر بنشوة شديدة حينما تداعب الشق الــذي بـــين فخذيّ. لم أكن أعرف أن السحاق لذيذ هكذا. أذكر أبحاث "الفيمينـــزم"

التي قرأتها من قبل. يزداد اقتناعي بها فأقرر تطبيق "اللوجوس" أقول بصوت مشوه لا هو بالأنثوي ولا بالذكوري:

– هل تذكرين عبد الناصر؟

– أخطأ السادات كثيرا في ثورة التصحيح التي قام بها..

– كان مثالا للصعيدي الحقيقي، كان مصريا صميما يمثل روح الشموخ العربي.

– كان خطوه الأفدح سياسة الانفتاح التي انتهجها، أتدرين أني أعتقد أنه السبب في الأزمات الاقتصادية التالية على مر السنين حتى اليوم؟

– كان تطبيقه الاشتراكية أعظم ما قام به من أعمال.

– كنت أحب ذلك الرجل كثيرا، انه بالفعل كان ثعلبا كما سُمي، كم حزنت على نهايته الدامية.

– موته بالسم كان إهانة عظمى له.

– ماذا كنت أقول؟

– كنت تقولي الشعر..[1]

– لست أدري لم أشعر بالكره نحوك.. انك تعذبني بوجودك جواري.

لم ألبث أن خاطبتها بضمير المذكر إلا ورأيتها قد بدأت تتشكل في هيئة ذكورية. إنها تتماهى، تنبثق، تتحدد، تتضح معالمها تماما فتعود مرة أخرى صديقي ذا اللحية المدببة. أقول بصوتي اللامنتمي:

– كيف كانت رحلتك من الذكورية إلى الأنثوية وبالعكس؟

---

[1] نجيب سرور بتصرف.

- إنها رائعة... لست أدري لم لم يخلقني الله أنثى.
- لا تعترض على إرادة الله وعش ذكورتك كما ينبغي.
- ولماذا لا أعترض؟ هل كتب عليّ أن أطيع إلى مالا نهاية؟ ألا أعمل عقلي؟ ألا أحقق شيئا مما أبتغيه لأن الله لا يريد هذا؟

أضحك قائلا:

- يبدو أنك قد وجدت طريقك الصحيح.

ننخرط في الضحك فينتقل بنا الزمن آنيا إلى أزمنة أخرى متلاحقة. نضغط الزر الكهربائي الذي في الجدار فيتوقف سور النافذة الذي نعتليه في العصر الفرعوني. أذكر الحجاج بن يوسف الثقفي. أردد شعرا لجميل بثينة. أرى هارون الرشيد يشير لي فأبتسم له. أذكر دي سوسير. البنوية. التفكيكية. ما بعد الحداثة. اللامعقول. صمويل بيكيت. صموئيل شمعون. الكراسي. الحرب الأهلية اللبنانية. الجمهورية العربية المتحدة. 1967. 1967 مرة أخرى. حريق القاهرة. الأوبرا. بداية الدولة الحديثة. أحمد شوقي. مشهد لآذار. جامعة فؤاد الأول. السد العالي. نجيب سرور. سورة البقرة. الإنجيل. سورة البقرة مرة أخرى. انجيل متى. مسجد بلدتنا المتهدم. الإصحاح العاشر. فرانس بوب...

أفيق من شرودي اليقظ على صوت الآخر. ألمسه فأتشكل بقوتي الذاتانية إلى رجل مرة أخرى. أقول بتأفف:

- أريد أن نبقى في هيئة لم يتشكل عليها كائن قط.
- إذن لنفكر بشيء من الإهمال، وقتها ستختلط معلوماتنا وينشأ من اختلاطها مسخ رائع.
- أجل، إنك تذكرني بتجربة النعجة "دوللي".

أقول لهما:

– بالمناسبة، أنا لا أعرف كيف أنهي تلك القصة؛ فلقد دخلتما في عوالم غريبة لست أدري كيف أجمّع خيوطها، كما أن حواراتكما مفككة، وعلى الرغم من أن النقد الأدبي سيجد لها تبريرا إلا أنها شتتت ذهني.

يرد عليّ صاحب اللحية:

– ابعد عني أيها الأخ واتق الله، إني أعرفك، ألست ذلك الكاتب إياه؟ دعك من النقد السينمائي وسأقول لك شيئا نصيحة لوجه الله ، الطريق مفتوح ولم يغلق بعد..

أقاطعه قائلا:

– دعك من تلك النصائح ووفرها لنفسك أيها المسخ، ثم لا تنس أني الذي خلقتك وكونتك بقلمي وشكلتك بثقافتي، ولو أردت إفنائك الآن لفعلت.

يرد عليّ الآخر:

– عفوا، بالرغم من أنك شديد القرب إلى نفسي إلا أني أعترض، بل سأكون أول من يسد عليك الطريق ويمنعك من مصادرة حريته في الحياة.

أقول منفعلا:

– أنا الذي خلقتكما ولي حرية فعل ما أريد فيكما أيها النذلان.

يرد بهدوء مثير:

– لن تستطيع، فليس معنى إيجادك لنا من بنات أفكارك أنك صاحب حق في قتلنا أو إنهاء حياتنا، إن حقك الأول في الخلق كان بكامل إرادتك ولكنك لا تمتلك بعد ذلك أي حق علينا.

أصرخ:

– إني قد سئمت صوتك، انك تتدخل فيما لا يعنيك وقتلكما لبعض لابد، وإلا ما نهاية العمل؟

يقولا معا وكأنهما متفقان:

– سنقول لك ما نهاية العمل.

أراهما يخرجان من القصة فيتركاها شاغرة. أثور عليهما. لقد أضاعا عليّ مجهودا كبيرا بذلته أدى إلى هدم البناء الفني للعمل. يقتربان منّي بهدوء؛ فترتعش أطرافي. أرى في عينيهما الشرر فأسرع نحو قلمي. أقذفه نحو صاحب اللحية فينغرس في صدره ثم لا يلبث أن ينفجر مفتتا كاللغم. يميل عليه زميله. أحاول إصابته لكنه ينجح في تشكيل صديقه وإعادته للحياة. أنطلق جاريا. يجريان ورائي فيلحقان بي. أقاومهما فيشلان حركتي تماما. يلقياني داخل القصة لأتقيد داخل سياجها ويبدآن النسج قائلين:

– هكذا تكون نهاية القصة.

فهرست

- **أن تعيش لتحكي**
  السيرة الذاتية
  جابرييل جارثيا ماركيز
  ترجمة: د.طلعت شاهين
- **ذكريات**
  رواية
  تأليف: جابرييل جارثيا ماركيز
  ترجمة: د.طلعت شاهين
- **نضارة شمس**
  شعر
  عطية حسن
- **القرمية**
  رواية
  تأليف: سميحة خريس
- **حكاية أيراندير البرئية**
  رواية
  تأليف: جابرييل جارثيا ماركيز
  ترجمة: د.طلعت شاهين
- **من حلاوة الروح**
  رواية
  صفاء عبدالمنعم
- **قطرات الماء**
  تأليف: ميدوروما شون
  ترجمة: د. أحمد فتحي
- **كتاب العشق والدم**
  شعر بالعربية والأسبانية

طلعت شاهين

- **رجل عدن**
  رواية
  تأليف: كلارا خانيس
  ترجمة: د. طلعت شاهين
- **كائن العزلة**
  رواية
  محمود الغيطانى
- **مملكة الجوارح**
  رواية
  د. زينب أبو سنه
- **الوردة ملء الليل**
  شعـــر
  رضا العبيدي
- **طائر الشوك**
  شعر
  د. زينب أبو سنه

صدر حديثا

- **أناديكِ من مَكانٍ بعيد**
  شعر
  عيسى حسن الياسري
- **المطر الأصفر**
  روايــــة
  تأليف: خوليو ياماناريس
  ترجمة: د. طلعت شاهين